مزاد علني

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2019/6/3296

813.03
النعيمي، بديعة حسن
مزاد علني – بديعة حسن النعيمي – عمان: دار فضاءات، 2019
الواصفات: /الرواية العربية//الأدب العربي/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9923-729-93-9

فضاءات للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2020
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
مزاد علني – بديعة حسن النعيمي – الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص. ب 20586 عمان 11118 الأردن
E. mail: Dar_fadaat@yahoo. com
Website:http://www. darfadaat4publishing. com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

بديعة النعيمي

مزاد علني

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى الأحرار في وطني العربي

القسم الأول

المشهد الأول

انتظر بين أجمات الأشجار، وما أن غادر الغسق مكانه وحلَّ الليل بكامل هيبته حتى ارتدى معطف الظلام، وركض مسرعًا نحو براميل القمامة باحثاً عن ذلك الكنز الثمين، والذي تتعلقُ به آمالٌ كثيرة لأناسٍ تركهم خلفه ينقعون الحصى في براميل من اليأس، علَّها تنقلبُ كسرَ خبز يسكتون بها ضوضاء أمعائهم التي أحدثتْ ثورة على معدهم، التي لم تزوّدها خلال اليومين الماضيين سوى بالقليل من أوراق الأشجار.. فحتى أوراق الأشجار في مدينة كمدينتنا تعزُّ على البطون الجائعة، فمعظمها تخلّى عن أثوابه وكشف عورته في سبيل تقديم شيء لأولئك الفاغرين أفواههم، ينتظرون أيّ شيء لإدخاله إلى تلك الرمال المتحركة القادرة على التهام ما يقترب من حدودها..

قلَّب البراميل فلم يجدْ فيها شيئا، فقرّرَ دخول القصر.. المهم أن لا يعود بيدين خاويتين... جلس بجوار البراميل إلى أن انتصف الليل.. وبعد أن سكتتْ الجلبةُ القادمة من القصر، قفز بحركة متقنة إلى أعلى السور الذي لم يكن ارتفاعه بالشاهق، وما أن أحسَّ بوجوده ذلك الكلب المربوط بغرض الحراسة، حتى بدأ بالنباح المستمر آملا أن يصل صوته إلى أذنَي سيده الذي غط بنوم عميق، حيث غاص رأسه داخل وسادة الريش المستوردة له خصيصا، كان أبوه قد أوصاه بالنوم على وسادة كهذه لأنها تجلب له الأحلام السعيدة.. ظلَّ ذلك اللعين ينبح، لكنّ الأحلام التي سيطرتْ على رأس سيده سجنته داخل زنزانتها، وحجبتْ عنه أية أصوات في الخارج..

استطاع أخيرًا القفز إلى أرضية الحديقة والتي كانت تمثل مدينة أخرى غير تلك التي نعيش على أرضها... جميع المصابيح ذات الألوان الجميلة كانت لا تزال مضاءة، فاستطاع رؤية التنسيق الغريب للأشجار والأزهار والنخيل والنجيل الصناعيّ، كما واستطاع تمييز الأعمدة الحجرية، والمدخل الذي نظرَ إليه بلؤم وكأنه يقول له من أي عالم قد أتيتْ؟ وما هذا البطن الضامر والشعر الأشعث؟ فأنا معتاد على رؤية ذوي الكروش المنسدلة خارج البناطيل والرؤوس الكبيرة، فمن أين أتيتَ يا هذا؟ نظر نصر بدوره إلى ذلك المدخل، وأخذ يُهذّب من شعر رأسه ويحاول إنزال تلك الكنزة المهترئة القصيرة، والتي كشفتْ جلداً لبطنٍ كان هنا قبل أن تستولي عليه قلاع الجوع.. فما أن يشدّها للأسفل ويستر بها هذا البطن، حتى ينكشف جلد ظهره الذي كان لوحة متقنة رسمها الجوع بكل مهارة، فأظهر شكل الفقرات بكل دقّة، وعندما زاد المدخل من استفزازه له بنظراته النرجسية، أخرسه بركلة على أحد أعمدته الرخامية قائلاً له: صه أيها المنبوذ فبالرغم من أنك تلبس أغلى الحلي، فما أنت سوى مظلة يائسة لمدخل قصر بُنيَت حجارته من دماء الفقراء.. ثم تركه بعد أن شعر أنه انتقم لكرامته، وانطلق للبحث عن نافذة لا تؤدي إلى غرفة محتوياتها ذهب وألماس أو حتى خزنة تخبِّئ بداخلها الملايين من العملات النقدية ومخططات الغدر والخيانة، بل ذهب يفتش عن نافذة غرفة يقولون بأنها تحوي أرغفة الخبز، علَّه يحصل على واحد أو اثنين ليسُدَّ به رمق أولئك البائسين.. هو لا يريد لحمًا أو فواكه، هو فقط أراد ذلك الرغيف السحري، لمن اشتعلتْ نيران الجوع داخل أمعائهم..

وبعد عملية بحث متعبة وجد مراده، فشهقَ وقفزتْ عيناه إلى الخارج مسافة شبر.. إنه المكان المسمى بالمطبخ، والذي لا يشبه مطابخنا التي تضم

عدة رفوف خشبية خاوية إلا من أوعية بلاستيكية، حيث كان فيها القليل من العدس الذي لم يطُل به المقام بداخلها، فقد غادرها سريعًا وكانت رحلته الأخيرة داخل الأمعاء التي تتلوى جوعًا، بالإضافة إلى وجود غاز قديم يشكو الزمن من قلة استعماله...

فتح النافذة، ودخل ذلك المكان وكأنّه علاء الدين الذي اصطحبه عمه الأناني مخاطرا به إلى تلك المغارة كي يحضر المصباح السحري، وما أن أصبح داخل المغارة، حتى وجد نفسه أمام كنوز عظيمة لم يكن يحلم برؤيتها حتى في أحلامه، وكان عمه قد أوصاه بعدم لمس أي شيء، أو حتى أن يفكر بأن تمتد يده إلى ما قد يراه في الداخل... لكن نصرًا ليس بعلاء الدين وما أدخله إلى هذا المكان ليس المصباح السحري، إنَّه الرغيف السحري، فبالرغم من كل ما وقعت عيناه عليه من أطعمة لم يفكر للحظة بأن تمتد يده إلى شيء منها، لأنه لم يدخل بغرض السرقة إنما كان دخوله بهدف ردع الجوع عن من هم خلفه.. فماذا ستكون نهايته عندما يمسك بأول رغيف؟ ألن يسعفه مارد المصباح في اللحظة الأخيرة وينقذه حاملاً إياه للخارج مع كنزه الثمين والذي يتمناه معظم أبناء مدينتنا ويبحثون عنه ليلاً ونهارًا؟

سار ببطء وحذر شديدين وعلى رؤوس أصابعه حتى لا يتسبب بإيقاظ أحد من أولئك الذي يهذون بنومهم لكثرة ما تناولوه على وجبة العشاء.. يا لمعدهم المسكينة! إنني لأشفق عليها فهي في شغل دائم ولا تتوقف أبداً كأنها ماكينات في مصنع لا يتوقف عن العمل ولا تُقفَل أبوابه....

صاحتْ نفسُ نصر بصوت لم يسمعه سواه قائلةً: لقد وجدنا الكنز يا لفرحتنا به وفرحة أبينا وأخوينا... لكن الفرحة لا تكتمل دائما، فلا

تفرحي يا نفس نصر، لأن وقت فرحتك قصير جدا ولن تتجاوز آخر حرف من كلمة يا لفرحتنا!! فما أن امتدتْ يده والتقطتْ أول رغيف، حتى قرّبه من أنفه واشتمه بقوة كأنما أراد أن يُشبع جوعه باستنشاق رائحته فقط، ويحتفظ به ليكون بالكامل وجبة شهية لمن هم خلفه، ثم ضمّه نحو صدره ومرغه حتى كاد يمزقه شوقًا إليه، لولا أن انتبه لنفسه ورفعه وقبله قبلاً كثيرة، كيف لا يقبله ويفرح به وهو قوت لتلك الأجساد التي كاد بحر الجوع يبتلعها، ولم يكد المسكين ينتهي من تلك النشوة التي اعترته للحظات، حتى كان ذلك المخلوق الذي يحمل أكبر كرش تراه عيناه يقف أمامه بكامل قباحته.... لقد أيقظه كلبه اللعين لشدة ما نبح آملاً بالحصول على قطعة لحم، حتى لو كانت ملوثة بدم فقير ما.. ظلَّ ينبح حتى أيقظ سيده، فما كان من الأخير إلا أن استيقظ مفزوعًا وأخذ يجري لاهثا على الدرج المذهب وكرشه يتقدمه كأنما يجريان في سباق ماراثون.. ركض وكانت قدماه المثقلتان بالنوم تحطّان على الدرجات الرخامية التي ارتدت أغلى أنواع السجاد المستورد الباهظ الثمن، والتي للأسف امتصت صوت وقع أقدامه فكانت شريكة له في الجريمة، لأنها لم تسعف نصرًا على سماع خطواته، وهو يركض نحو المطبخ مسرعًا لينقذ أرغفته من السرقة.. يا لسوء حظك يا أخي.. فقد وقف أمامك ليلتها أقبح غول ممسكًا بمسدس، هو بنظره أغلى ثمنًا من هذا النكرة (نصر) الذي دفعه الجوع ليمدّ يده إلى ذلك الكنز... فنظر نصر في تلك اللحظة نحو النافذة، نظرة أخذته إلى أرض الوادي حيث بيتنا.. آه يا حبيبي، حتى والموت يقترب منك تفكر بنا؟ تفكر بجوعنا؟ ثم أدار وجهه نحو قاتله وبالرغم من أنه علم بأنه ميت لا محالة، إلا أنه ظل يحتضن الرغيف السحري وكأنه أراد بذلك أن يوصل رسالة لصاحب الكرش، بأن هذا حق من حقوقنا التي

نهبتموها منذ أكثر من قرن.. لِمَ لَمْ تمهله يا صاحب أكبر كرش أن يحلم قليلا؟ لِمَ لَمْ تمهل رائحة الرغيف بأن تتجول قليلا داخل أنفه ليشبع جوعه؟

صوّب اللعين المسدس نحو رأسه وأطلق رصاصة واحدة.. رصاصة كانت كفيلة بقتل حلمه وإنهاء نشوته، وتحرير ذلك الرغيف من يديه.. سقط الرغيف وتلطخ بدم السارق، ثم تدحرج تاركًا خلفه خطوطًا من دم (نصر) ظلَّ يتدحرج إلى أن استقر عند قدمي سيده، فعانق حذاءَه المنزلي الفخم ولطخه بالدم، ركله صاحب الكرش للخلف مُتَهما إيّاه بالخيانة، فعاد ككرة قدم سجّلتْ هدفا في مرمى الخصم، واستقرت هناك محتضنة الدماء التي كانت قد غادرت جسد صاحبها، وعانقت أرضية المكان رغمًا عنها..

لامته جثته في تلك اللحظة على دخوله لهذا العالم... ليتك لم تذهب وتدخل ذلك القصر يا أخي، ليتك بقيت وكانت الحصى جميع وجباتنا..

بكل برود ترك صاحب الكرش مكان جريمته وتوجه إلى البراد وكانت دواخله قد خلت من ذلك المسمى (بالوجدان) فكأنه داس على نملة واعتصرها تحت حذائه!! وأمسك الباب وفتحه، ثم دسّ يده المتراخية من شدة النعس في كيس فيه قطعة لحم تبقّت من عشاء الليلة الفائتة، ومضى بها إلى حيث كلبه المدلل المخلص والذي كان قد نبهه إلى وجود هذا السارق، فأنقذ بذلك مطبخه من أن ينقص رغيفًا.. سار بخطى بطيئة إلى أن وصل إلى شريكه في الجريمة، فمسح عدة مرات على رأسه، وقدم له مكافأته الذهبية على حسن تصرفه، فما كان من الكلب إلا أن اقترب بلسانه من حذاء سيده، ولعقه، فهل كان فعله وفاء له، أم أن لدم الجائعين رائحة شهية فأراد أن يتذوقها، علّها تكون مقبلات له، قبل التهام تلك القطعة

الضخمة من اللحم!!... يا لها من وليمة مسائية أيها الكلب الغادر، كيف يمكنك أن تقدم على أكل تلك القطعة والتي كان ثمنها غاليا جدا؟؟؟؟ قد كان ثمنها حياة نصر..

عاد القاتل أدراجه يسبقه كرشه الذي لا زال مترعًا بعشاء تلك الليلة، هو لم يفكر حتى بخلع حذائه الذي استحم بدماء نصر، وكأنه أراد إذلال كل قطرة علقت به وهو يدوسها تحت ثقل جسده الذي بدا أنّه بدأ يتهاوى من شدة النعاس، ومن ثقل ما يحمله كرشه من قذر..

أخذ يجر قدميه على الدرج، وما أن وصل إلى أول أريكة صادفته في الطابق العلوي حتى ألقى بجسده عليها، واستسلم سريعًا للنوم دون أن يفكر بتلك الجثة التي تركها ملقاة على أرضية المطبخ....

المشهد الثاني

تعالت صيحات الجيران من بعيد يحملون جثة (وجدها أحد نابشي القمامة وهو يبحث عن كسر الخبز) ملقاة عند أحد براميل القمامة، كان الذباب قد أقام احتفالية عليها مذ لامستها أشعة الشمس، وكانت دماؤُها التي ما زالت ساخنة وجبة شهية لها.. إنّها جثة نصر.. نصر سارق الرغيف السحري!!

كاد باب بيتنا يسقط من شدة الطرَقات التي انهالت عليه، فالكل يريد أن يُسجل سَبَقا صحفياً بنقل خبر الوفاة، وكأنه ينقل خبر انتصار جيش المسلمين باستعادة الأندلس أو حلّ القضية الفلسطينية، أو اندحار الإرهاب من الأراضي العربية.. شعب جعله الفقر هامشيًّا تفكيره سطحي وهشّ..

أعانك الله يا أبي حين تلقَّيْت خبر وفاة نصر، في ذلك الصباح تقدمَ أحد الجيران مطأطئًا رأسه، مقتربًا من أبي الملقى على فرشة في زاوية الغرفة المتهالكة، ولا أعلمُ من هو الذي ألصق بها تهمة أن يكون اسمها بيت.. يومها تعثّرتْ الكلمات داخل فمه قبل أن تُرتِب نفسها وتخرج بهذه الأناقة... قائلاً:

(لقد عثر أحدهم على جثة نصر بقرب أحد براميل القمامة...)

ألم يكن باستطاعة ذلك الجار وقتها أن يمهد للموضوع قبل أن يصعق أبي، ويصفعنا بتلك الكلمات القاتلة؟ ولكن كيف وأمثالنا مشغولون فقط

بالهروب من الجوع، والبحث عن كسيرات الخبز بين محتويات القمامة.. كيف عتبْتُ يومها على هذا المسكين؟

كيف لك يا صاحب الكرش، أن تغط في نوم عميق على أريكتك التي احتضنتك رغما عنها؟ أتعلمْ أنها لو استطاعت لَلفظتكَ خارج حدودها لأنها اشتمت بك رائحة الدم أيها القاتل؟.. تنام ونصر جثة تتكوم أمامنا ككيس قمامة..! كم مرة تَوسّلتْ لكم جثته بأن تواروها وتتركونا نعيشُ نحن على أمل عودته ذات صباح؟ كم من المرات قبَّلتْ جثته أقدامكم وتوسَّلَتْكم بأن تواروا جريمتكم ووعَدتْكمْ بأن تَسكُتَ، لا لشيء إلا من أجل أن لا يصل خبر الوفاة إلى أبي... أبي الذي كان ذات يوم مقاتلاً على إحدى جبهات القتال، يدافع عن عرض مدينتنا، وعن أعراضكم المبذولة يا أصحاب الكروش... أبي الذي أُصيبَ برصاصة غادرة، عرفتْ طريقها إلى فقرات ظهره فاخترَقتْها مُسرعة، قطعت الحبل الشوكي، وحرمته السير على أقدامه، حرمته من ذلك الإحساس الذي يعتري كل الذين يستطيعون المشي على قدمين.. فاستبعدتموه وقتها من عمله بعد أن قدمتم له مكافَأَة هزيلة، والتي بدورها صرَختْ بكل ما أُوتيتْ من قوة عندما أعطيتموها له ثمنًا لقدميه.. وقتها صاحتْ قائلة:

لقد أهنتموني كثيرًا، وخجلتُ من هذا المسكين عندما مدَّ يده ليأخذني، ودسني داخل جيب سرواله الذي بكى أيضا وانتحب حزنا على صاحبه، كما بكى ذلك الضيفُ الجديد، كرسيّه المتحرك والذي تعرَّفَ للتو على صاحبه الذي جثَا فوقه كخرقة بالية..

قد توسلتْ إليكم كثيرا جثة نصر لكي تدفنوها، لكنكم كنتم ولا تزالون بلا مشاعر، فأنتم أشبه بروبوتات تفعلُ كل شيء، ولا تحسّ بشيء...

ألقيتم به هناك بجانب القاذورات كشاة جرباء أقدم مالكها على ذبحها، بعد أن يئس من شفائها وأبعدها عن بقية القطيع خوفًا من العدوى.... فهل دماء الفقراء باتت تنقل العدوى.. هل البحث عن قوت في قمامة قصوركم، ليُبعِد شبح الموت عن الحياة سرقة؟

طلب أبي من الجيران أن ينقلوه إلى حيث تغفو جثة ولده البكر الذي لم يتجاوز الأربعَة عشرَ ربيعًا من العمر، لكنه كان في الحقيقة قد تجاوز قرونًا.. فهكذا هي أعمار الفقراء، أرقامها تعلمتْ القفز بسرعة مذ زُرِعت تلك النطفة في رحمها الدافئ... رفض أبي يومها أن يجلس على الكرسي الذي كان له نعم الصديق، والذي لم يملّ صاحبه يومًا أو ينزعج منه بالرغم من أنّ أبي جثم فوق صدره لسنوات، لكنه لم يُثقل عليه، فقد كان هزيلاً أو بالأحرى كان بقايا رداء ممزق مزقته مقصات الحياة، ويا لها من مقصات مدربة وماهرة جدًّا، جعلت منه رداءً واهنًا تسرقه الرياح معها في أول هبّة ضعيفة لها...

حمله اثنان من الجيران كما طلب إلى خارج البيت حيث جثة نصر.. احتضن أبي قطعة منه لكنها قطعة ميتة.. قبَّل الوجه الذي سالتْ دماؤه من ذلك الكهف الذي حفرته تلك الرصاصة بكل حرفية بين العينين، واستقرتْ داخل صندوق الرأس.. استطاع أبي أن يميز أن من رماه بها ما هو إلا صياد ماهر يمارس هذه الهواية بشكل دائم في غابات قصره، على حيواناته البريئة التي لا تملك من أمرها شيئًا، فذلك الذي رماه بتلك الرصاصة لم يرَ نصرًا إلا واحدًا من تلك الحيوانات خاصته.. قبَّل أبي المكلوم وجه نصر الذي اختلطت دماؤه بتراب المدينة التي طالما دافع عنها ببندقيته الشريفة.. فهل هي المدن من تقتل أبناءَها؟؟؟

تحسَّس أبي الذي بدا كالأم الثكلى مكان الرصاصة التي حفرت ذلك الكهف، نظر من خلاله كأنه منظار، فرأى نفسه هناك يقاتل ويدافع عن مدينته بكل بسالة.. بدأ يعد بصوت منخفض:

واحد..

اثنان..

ثلاثة..

ثم يبتسم وكأنه يستشعر لذة النصر وهو يحصي قتلى الأعداء.. فكأن جمجمة نصر من الداخل قد تحوّلت بالنسبة له إلى جبهة قتال، فرأى نفسه وهو يرتدي لباسه العسكري ممسكًا ببندقيته التي لم تفارقه لأيام.. ورأى زملاءَه يحاربون إلى جانبه فتتعالى صيحات النصر...

يا لتلك الجمجمة المسكينة التي قريبًا يخرجُ دودُها فيأكلها ويُحيلها إلى تراب..

وفجأة أجال أبي بصره داخل الجمجمة وركز في إحدى زواياها فكأنه قد رأى المعركة وقد انتهت جولتها الأولى بالنصر، فإذا به داخل الخيمة يحتفل مع زملائه.. فيزداد الفرح فرحًا وتتعالى الضحكات، عندما يأتيه خبر بأن زوجته قد وضعت أول مولود لهما..

فتتهامس الألسن داخل الخيمة.. ويتغامزون.. بأن صاحبنا لم يترك له جهدا في أيام زيجته الأولى ليرزق بالمولود بهذه السرعة.. فتعج الخيمة بالضحك.. فيرفع أبي يده قائلاً:

سأسميه نصرا..

فتصفق الأيدي، وينهالون عليه بالقبل والتمنيات بطول العمر للمولود..

لم يعلم أبي ليلتها بأن يد أولئك الذين كان يدافع عن قصورهم، ستمتد لتقطف زهرة شباب بِكرِه التي لم تتفتح بعد.. فأيّ معركة هي تلك التي انقلبتْ نتيجتها إلى خاسرة.. لكن خاسرة ضدّ من هذه المرة يا أبي؟؟ خاسرة ضد من يا نصر؟؟؟

نظف وجه نصر، وأزال التراب والدم المختلط ببقايا الذباب الذي التصق بها طلبًا للغذاء والرطوبة، فقد كانت جثته وليمة شهيّة لها فجر هذا اليوم، كما وكانت وجبة دسمة لتلك الكلاب الضّالّة التي بقرتْ بطنها وتناهشتْ أحشاءَها..

فجر هذا اليوم خسرتْ المدينة معركتها، بعد أن فشلتْ في حماية أحد أبنائها.....

لا أعلم ذلك الصباح كيف نمتُ وقد اعتدت أن أبقى مستيقظًا طيلة الليل أنتظر أخي نصرا لأطمئن عليه، فقد كنتُ على موعد دائم مع الخوف على فقدانه.. فتحتُ عينيّ ذلك الصباح على أصوات بكاء، وحوقلة وجلبة لم أعهدها قبل هذا اليوم، فلقد تعودنا هنا بأن لا نسمع سوى صوت معركة أمعائنا، فما الذي يحصل في الخارج؟؟ تذكرت أبي فجأة فالتفتُّ ناحية فرشته فلم أجده، لكن كرسيه لا يزال هناك في مكانه!! فهل حصل له مكروه ما؟؟ قفزتُ بسرعة ولم أتعنَّ فتح الباب لأنّه كان مفتوحًا وتوجهتُ إلى الخارج، فإذا بالجيران يقفون وقد تحلّقوا في دائرة ضيقة، ركضتُ نحوهم وبعثرتُ ترتيب الدائرة فإذا بالمحظور قد وقع..

جثة نصر تحتضن الأرض وأبي بدوره يحتضنها، وقد امتزجت دموعه بدم أخي والتراب الذي علق به.. غبتُ وقتها عن كلّ شيء فأصبح الكون أمامي مفرغًا، أخذني الدوار فسقطتُ مغشيًّا عليّ.. اندفع أحد الجيران

وأتى بإبريق ماء فأفقتُ على قطراتٍ تنزلق على وجهي، وتعيدني إلى ذلك الكابوس المرعب، زحفتُ نحو نصر وضممته إليّ.. ضممتُ جثة أخي.. أخي الذي ذهب كتراب عانق زوبعةً صيفيةً فغاب معها..

يا إلهي كيف أقول عن أخي جثة؟ هل أصبح مجرد جثة من غير روح؟ يا لها من كلمة قاسية يا نصر.. فكيف قتلوك وكيف أضحيت جثة لا حياة بها؟

بينما على باب البيت وقف "روح" الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره يراقب المشهد وهو يفرك عينيه بكلتا يديه، والذي ربما كان يظن أنه ما يزال داخل حلم من أحلامه.. نسيتُ للحظة مأساتي وأسرعتُ نحوه..

(ما الذي يحصل يا أخي؟) سأل روح وهو يمطُّ رقبته للأمام محاولاً معرفة ماذا يجري!!..

وضعتُ كفة يدي على عينيه، والأخرى أمسكتُ بها مؤخرةَ رأسه وأخذته للداخل، وقلتُ له لا بأس يا حبيبي فهناك مشكلة نحاول حلَّها مع الجيران...

أدخلته وطلبت منه عدم الخروج إلا عندما ننتهي..

(لكنني جائع يا أخي؟؟) قال

(سوف أحضر لك الطعام يا روح حالما ننتهي، ادخل يا حبيبي الآن..).

أغلقتُ باب الغرفة وعدتُ إلى كابوسي.. عدتُ حيثُ فقدت أبي ونصرا دفعة واحدة، فالألم لا يأتي غالبًا إلا دفعة واحدة، ولا يعبأ بمشاعرنا عندما تتمزق.. أبي الذي لم يحتمل هول الفاجعة مات.. فكيف يحتملها وهو الهزيل المرهق الذي كان ينتظر تلك القشّة التي قصمت ظهره، فغيبته عن الدنيا وأراحته منها..

وقفت أنظر إليهما ولم تنزل منّي أية دمعة؟؟ هل أنا قاسٍ لتلك الدرجة، بحيث أن دموعي لا تنزل على فقدي لأحبّ الناس إليّ؟ هل ينفع أنْ أكون عاصيًا حتى في موقف كهذا؟؟

قال لي نصر ذات يوم:

إنّه عندما حان وقت ولادة أمي وكانت حاملاً بي أنا.. عاصي.. قال إنني وقتها رفضت الخروج وترك عالمي الدافئ ذاك، فعانت أمُّنا المسكينة كثيرًا بسبب ذلك، فقد استدرتُ لحظة الولادة فانقلبتُ داخل رحمها رأسًا على عقب، واتخذتُ هيئة الوقوف بحيث أصبحتْ قدماي للأسفل وكأنني كنتُ أعصي تلك اللحظة.. لحظة الخروج لهذه الدنيا.. تجمع الأطباء وأجمعوا على رأي واحد لإنقاذها ومولودها العاصي.. فلم يكن هنالك حلّ سوى العملية القيصرية ليرغموني على الخروج...

ضحكنا يومها كثيرا لأن والديَّ قرّرا تسميتي عاصيًا تيّمناً بنهر العاصي الذي يجري بعكس جميع أنهار العالم...

تلك الليلة الليلاء، التصق جسدي بجسد روح بعد أن فقد كلانا الأمان، فأصبحنا كدائرتين صغيرتين فقدتا محيط دائرتهما الكبيرة التي كانت تضمهما بداخلها، تداخلتْ دائرتانا والتحمتا كأنهما لا تريدان الانفلات أو الانفراد..

تساءلتُ ليلتها هل مدينتنا هي التي قتلتْ نصرا؟ فجاءتني الإجابة.. لا..

إذن فهل هي التي تبتلع جثث أبنائها؟

وأيضا كانت الإجابة.. لا..

فماذا فعلت المدينة إذن؟

كانت الإجابة أنَّ المدينة كما الأم تماما.. أو ليستْ هي من احتضنتْ جسد نصر وأبي؟ فلِمَ أكون عاصيًا لها؟

نام روح تلك الليلة وهو يحتضنني ويكرر سؤاله عن أبي وعن نصر، ولا أذكر كيف تحايلتُ عليه.. فما أصعب الإجابات وما أكثر الكذبات التي نسجها لساني..!!

صباح اليوم التالي للمأساة.. استيقظتُ وروح على صكيك الباب الصدئ لبيتنا، فإذا بأحد الجيران يطلب مني أن أصطحبه أنا وروح إلى بيته ليقوم بواجب العزاء، وبعد رفضٍ مني وإصرارٍ عنيف منه وافقت، قُمنا بمرافقته فقدّم لنا ما جادتْ به خزانة مطبخه كسيرات خبز يابسة مع شوربة العدس، تلك الأكلة التي تشتهر حاراتنا بطبخها أيام الجمع، مع أنّ ذلك اليوم لم يكن بيوم الجمعة.. وعندما حلّ الظلام، استأذنته بالذهاب إلى بيتنا، فما كان منه إلا أن أصرّ علينا بالبقاء عنده، والعيش في بيته كابنين له، وكأنه أراد تطبيق المثل القائل (البيت الضيق يتسع لمائة محب) لكن الليل بسكونه يفضح حتى النظرات، عندما تهمس بمكنونات الأنفس.. فأنا لم أكره زوجة الجار الطيب التي انتفضت ليلتها واحتجت، بأن كيف نؤمن طعامًا لاثنين آخرين زيادة على عيالنا، ونحن ننام بعض الليالي ببطون فارغة؟؟ نعم أنا لن ألومها على ما باحتْ به تلك الليلة لزوجها الطيب..

غادرنا أنا وروح إلى بيتنا..

وقتها كان عمري لم يتجاوز العاشرة، ولم يكن أخي نصرًا يسمحُ لي بأن أرافقه في أية رحلة من رحلات بحثه عن الطعام، بحجة أنني مسؤول في غيابه عن أبينا وأخينا الصغير، ولم أفهم إلا عندما كبرت بأن هناك تضحية

تحت مسمى التضحية المجهولة، فقد كان نصر يضحي بنفسه من أجلنا، ويحميني عندما كان يرفض اصطحابي في تلك الرحلات، لأنه كان يعلم بأنها من أخطر الرحلات في مدينة كمدينتنا.. لذلك لم يحالفني الحظ لأتعلم كيفية البحث عن كسيرات الخبز، فوافقتُ جارنا على الفكرة التي طرحها عليّ تلك الليلة، بأنّه من الأفضل الانضمام إلى الميتم من أجل روح فهو لا يزال صغيرا وبحاجة إلى اهتمام خاص، وأنني لن أستطع تأمين رعايته وحدي....

في اليوم التالي طلبتُ من روح أن يخرج وينتظرني أمام باب البيت ريثما أحضر شيئاً مهماً وألحق به، ولأوّل مرة تمتدُّ يدي إلى ذاك الكنز الذي كان أبي يخفيه ويداري عليه، ويعتبره أعظم كنز كان يمتلكه.. مددت يدي تحت فرشة أبي وأخرجت رزمة أوراق أكلت الرطوبة أجزاء كبيرة من أطرافها وغير الزمن لونها، فهل تهرم الأوراق كما تهرم الكائنات؟ إنها شهادات ميلادنا جميعا.. قلّبتُها بين يدي وفرّت دموع ساخنة سقطتْ على شهادة ميلاد نصر عانقتْ اسمه فانمحى الحبر وضاع الاسم في بحر متلاطم من التيه والفقد... مسحتُ ما علق بخدي من أثر تلك الدموع بطرف كمي وطويتُ أوراقي وانصرفتُ مُغلقًا الباب من خلفي...

أمسكتُ بيد أخي روح بعد أن سلّمتُ الأوراق لجارنا الذي سار أمامنا فتبعنا خطاه..

ودّعتُ أرض الوادي وبيتنا واللذين وقتها تخلّيا عنّا وأخرجانا خارج دائرتيهما.. كانت نظراتي مختلطة المشاعر ما بين نظرات عتب وجهتها نحو بيتنا، وأخرى نظرات حقد انطلقتْ كسهم إلى حيث ذلك القصر البعيد الذي اعتلى كتف الجبل، والذي ثار في اليوم الذي دُفن به نصر وأبي،

وتصدّع جزء ليس بالقليل منه، فانهار طرف السور من الناحية المواجهة لأرض الوادي، تمنّيتُ وقتها لو تنهار القصور على رؤوس ساكنيها فنتخلّص من ظلمهم...

سرنا ذلك الصباح كثيرًا إلى أنْ وصلنا إلى الباب الرئيسي لمبنىً اتسمَ بأسواره العالية، حيثُ تدلّتْ خارجها أغصانٌ لإحدى الأشجار المسنة والتي يبدو بأنها قد ملّت المكان لطول مقامها به، فحاولتْ الهروب بأغصانها إلى الخارج، بهدف رؤية عالم غير الذي تراه في الداخل.. كانتْ بوابة ذلك المبنى مطلية باللون الأسود المختلط بالصدأ، مع وجود الكثير من الثقوب التي تدلّ على تقادم العهد عليها، فكأن المكان قد خلا من الداخل من وجود أي حياة فيه، لولا ذلك الحارس الواقف أمامه، والذي اتسمَ بالبشاشة والطيبة.. استقبَلنا وفتحَ لنا البوابة الكبيرة العالية واصطحَبنا للداخل.

ولجنا إلى الحديقة، وهناك استقبلتنا الأشجار من بينهن تلك الشجرة المسنة، وكما توقعتُ فقد كانت ساقها ضخمةً توحي بسنوات عمر كثيرة، انحنتْ أغصانها وتساقطتْ بعض أوراقها، وهمستْ لي بكل حنان بأنها ستكون لنا بمثابة الأم.. انحنيتُ لها بدوري لكن انحناءتي كانت بجفني عيني كي لا يَلحظني أحد.....

سِرنا في ممر طويل فيه أبواب لغرف كثيرة إلى أن وصلنا أخيرًا إلى غرفة تتوسط المكان.. طرقَ الحارس بابها فسمعنا صوتًا أجشّ أتى من الداخل يأذنْ للطارق بالدخول..

استأذنَ الحارس وذهب..

دخلنا الغرفة وكان أوّل ما لفتَ انتباهي صور معلقة على الجدران، حملت ملامح مزيفة لرجال بكروش كبيرة، ونساء بابتسامات محتالة، إلى جانبهم أطفالٌ فرحون بهدايا حملت إليهم، إلا أن نظرة الحزن التي انطلقت من أعينهم، تشي بمقدار البؤس الذي يعتري دواخلهم.. كان في الغرفة مكتب أنيق تتكوّم على كرسيّ خلفه سيدة سمينة، ابتسمت ابتسامة ماكرة وطلبت من جارنا الجلوس..

(تفضل يا سيدي بماذا أستطيع أن أساعدكم؟؟) قالتها بصوت متراخٍ ومتكاسل..

شرح جارنا الطيب لها ظروفنا وما مررنا به من غير أن يتطّرق إلى ملابسات قضية أخي نصر، لتوجسه من أن ترمي أوراقنا في وجهه بحجة فعلة أخي سارق الرغيف السحري...

تناولتْ الأوراق منه وأخذت تقلّبها وتتمعن فيها، وتدقق بكل كلمة.. ولا أعلم لِمَ كل هذا التدقيق؟ فهل كانت تتوقع أن تجد ورقة تثبت ملكيتنا لأحد تلك القصور التي تعتلي رؤوس وأكتاف الجبال مثلا!!! ثم بحركة عجوز بطيئة رفعت يدها وأخفضت نظارتها السميكة قليلاً للأسفل، فكشفت عن عينين صغيرتين وغائرتين كثقبين في جدار بيت هرم عريض، ثم صوّبت نظرها نحونا، وقامتْ بسرعة فائقة بعملية مسح لنا من أعلى رأسينا إلى أخمص قدمينا، كنت وقتها أرتدي سروالاً كان أسودَ في زمن ما، وأصبح رماديًّا وقد برز لون جلد ركبتيَّ، كبرواز يحكي قصة شعب لا يلبسُ إلا الملابس المرقعة، أمّا الكنزة التي كنتُ أرتديها فقد كانت لأخي نصر، وكنت قد طويت أكمامها عدّة طيّات حتى تتحرر يداي فتخرجا لتتمكنا من رؤية النور، وذلك لأن أكمامها كانت طويلة جدا، أما الحذاء

فقد كان مهترئا من الأسفل ويتمتع بوجود الكثير من الثقوب فيه، لذلك تمكّنت قدماي من تقبيل تراب الطريق مرة ولعقها مرات كثيرة طوال فترة سيرنا نحو الميتم، فما وصلنا إلا وقد شبع الحذاء وجلد قدميّ من التراب وأوساخ الطريق، بينما شعري كان قصة أخرى غنية عن التعريف، أمّا روح فلم يكن حاله بأحسن مني.. فماذا كانت تنتظر وهي ترمقنا بنظراتها؟

(يا لك من عجوز خرفة أيتها السمينة؟؟) قلت في نفسي...

التفتتْ إلى جارنا وقالت له أن بإمكانه المغادرة، لأن الولدين أصبحا تحت رعاية الميتم...

ودّعَنا جارُنا الطيب واحتضن روح، أمّا أنا فقد وقفتُ جانبًا غير مبالٍ لأي شيء، وكأن المشاعر قد غادرتني وقتها ولا أعلم لِمَ فعلتُ ذلك، فاكتفى المسكين بأن نظر نحوي ثم رفع يديه إلى السماء ولا أعلم ما كانت دعوته لنا!!..

بعد أن غادرَ استدعتْ السيدة والتي عرفتُ فيما بعد أنها مديرة الميتم بكبسة زر، الموظف المسؤول عن توزيع الأطفال على الغرف...

سرنا خلفه وأنا أمسك بيد روح ضاغطا عليها بكل قوتي، خائفا أن يفرقنا بتوزيع كل واحد منا على غرفة مختلفة، لكن يبدو أنه أشفق على روح فقام بتوزيعنا على نفس الغرفة.....

ومن هنا بدأتْ حياتنا أنا وأخي روح ولا نعلم عن القادم من الأيام وما تخبئه لنا في طياتها المتعرجة....

القسم الثاني

ما حياتنا إلا كتلك المسرحية التي حوت من مشاهد الألم أكثر من أية مسرحية عُرضت على مسارح الحياة.. فقد تَشعرُ عند قراءتك لها بأن كل مشهد يؤّرخ لحياة كاملة من اليأس، مرة ومن الأمل مرات أخرى.. من الكره مرة ومن الحب مرات كثيرة.. مسرحية غريبة لأنك أيضًا قد تشعر بأنَّ كلّ مشهد من مشاهدها غير مرتبط بالذي قبله أو الذي بعده، لكنّك عندما تنتهي من قراءتها بالكامل، ستتأكد حينها بأنَّ الأحداث مترابطة وتعنيك أنت في مواضع كثيرة منها، فقد تجد نفسك في إحدى شخصياتها، أو حتى في أكثر من واحدة... فحياتك لو درستها بعناية ستكتشف بأنها مسرحية لم تكتبها أنت... بل كتبها لك آخرون، لم تكن تعني بالنسبة إليهم أي شيء....

المشهد الأول

تدافع الأولاد متزاحمين على بوابة الميتم، كلٌّ يريدُ أن يسبقَ الآخر للاستحمام بعد وقت قضوه في تفريغ طاقاتهم المكبوتة في ساحة الميتم، وكان من بينهم روح، والذي لم يكنْ قد تجاوزَ الخامسة من عمره، أمّا أنا فقد كنتُ متمرداً على طفولتي وكأنني كبرتُ عقدين إضافيين على عمري الذي تُوِّج بالعشرة أعوامٍ قبل أيام... فاكتسبتُ عداوة المربيات وبعض الموظفين، إلا ذلك الحارس الذي استقبلنا عند البوابة الرئيسية، وتلك الشجرة المسنة التي ألجأ إليها وأبوح لها، كلما اعترتني جيوش الألم، وكلَّما غزتني كلمات نصر التي قالها لي ذلك المساء القاسي، والتي حفرتْ خنادق عميقة في رأسي ولا زالتْ تخوض معاركها بداخلي، لن أنسى ما حَييت كلماتك يا أخي عندما صوّبتَ نظرك نحو عينيّ وقلتَ: (منذ الآن أنت مسؤول عن أبينا وأخينا، فانتَبِه لهما وتحايل على روح إلى أن أعود لأني أعلم بأنه جائع) ثم أشار إلى ذلك القصر الملعون الذي يعتلي كتف الجبل البعيد قائلاً: الليلة سوف نقيم احتفالاً كبيرًا عندما أُحضر الرغيف السحريّ، وغمز بعينه الواسعة تلك الغمزة التي اختلطتْ بالكثير من الأسى، ثم قهقه بصوت عال ومضى... لم أفهم ماذا عنى بالرغيف السحري، فهل هو نفسه يا ترى ذلك الرغيف المصنوع من الطحين؟

انتابني وقتها إحساس مزعج.. فقد كنت متأكداً بأنَّ الظلام ما أن يفتح فاه حتى يبتلع نصرا فيذهب إلى غير رجعة... فلماذا قال لي أنت مسؤول بعد الآن عن أبينا وأخينا؟ لِمَ جعلتني أتأرجح بين العودة واللاعودة يا

نصر؟ هل كان يشعر بالموت يقترب منه فرجاه أن يعطيه فرصة قصيرة لحين إحضار الرغيف لنا، فأعطاه الأمان ثم باغته واستله من الحياة ولم يمهله ليكمل ما وعدني به؟؟

ضغطت رأسي بكلتا يدي علّني بذلك أكبح جماح أحصنة أفكاري التي طالما كنت دائم الفشل في ترويضها...

قطع أفكاري قدوم روح بعد استحمام لذيذ ورائحة الشامبو تفوح منه كعطور ثمينة، بالرغم من أن الشامبو رخيص ولا يحمل أية علامة تجارية.. استلقى بجانبي على السرير فاحتضنته، ثم تعاركنا قليلا وضحكنا ثم بدأتْ صافرات النعاس تنطلق منه على شكل تثاؤبات متواصلة، وكان قد بدا عليه التعب والإرهاق لكثرة ما لعب في الحديقة مع الأطفال..

سألني بغنج..

ألا تريد أن تنام يا عاصي حتى تستيقظ باكراً؟؟

فأجبته وهو الصغير الذي لم يفهم حرفًا مما قلته ولا أعلم لما قلت أنا تلك الكلمات...

(ولماذا نستيقظ يا روح وواقعنا مرير؟ فكم أتمنى أن أنام لقرن ولا أستيقظ، إلا وقد تغير الواقع وتبدّل أهله، وفني أصحاب الكروش وصارت قصورهم خرائب تسكنها الغربان.. ليتني أستيقظ على صوت أمي توقظني وقد حضَّرت لنا وجبة الفطور البسيطة قبل ذهابنا للمدرسة، وأبي يرتدي ملابسه ويودعنا إلى حيث يعمل بابتسامته الحنونة.. ليتنا يا روح نستطيع أن نبدّل الحاضر.. كم أتمنى أن أعود إلى كهف الماضي هاربًا من هذا الواقع الجاف، فبالرغم من قسوة الماضي، إلا أنَّ حياتنا كانت رطبة بفعل المحبة التي كانت تجمعنا مع العائلة، فالحياة التي تخلو جنباتها

من المحبة، ما هي إلا صحراء مقفرة، أمَّا تلك التي تضجّ أركانها بالمحبة فهي بساتين تنبض بالخضرة.....).

أتذكرُ يا روح عندما كنا ننتظر نصرا ليأتينا بكسر الخبز؟

ليعود لنا جثة محمولة، مجردة من أية كسرة، إلا من ألم وقهر حملتها دماؤه التي كانت رخيصة عند ذلك القاتل.. إنهم قتلةٌ مأجورون منذ أكثر من قرن...

كان النعاس قد هجم على روح لكنه استطاع إنقاذ سؤالين قبل أنْ يستسلم للنوم.. فسألني..

ماذا تعني بجثة محمولة؟ وماذا تقصد بقتلة مأجورين؟؟؟

ثم استسلمتْ العينان لجيوش النوم.....

أغبط روحًا على صغر سنّه وعدم فهمه لعالم الكبار... أمّا أنا فأحاول النوم لكن الأرق يغلبني فهل كل هذا لأنَّني دخلت ذلك العالم المعقد باكرا، هل بالفعل عالم الكبار معقد ومؤلم؟؟؟

ها هي ذاكرتي تستعيد تلك اللحظات التي بالرغم من كل ذلك الألم الذي تحمله إلا أنها الأجمل..

ألم يكن روح إلى جانبي يقاسمني سريري هارباً من وحشة سريره كل ليلة، مع أنّنا في نفس الغرفة ونتنفس نفس الهواء إلا أنه كان لا يستطيع النوم إلا ملتصقا بي؟ ليت تلك اللحظات تعود لتخلصني من هذه الوحدة التي أعاني منها في هذه الغرفة الكئيبة وأخي بعيد عنّي، عزائي الوحيد هذه الكتب التي تحيط بي والتي كلّما قلّبتُ صفحات أحدها عشتُ في عالم جديد وبعيد عن عالمنا الذي وُلِدنا فيه، فالكتب هي عالم آخر، قد تأخذنا

إلى قرون ما قبل الميلاد أو تقذف بنا أمواجها إلى قرونٍ لم تأتِ بعد، فنجد أنفسنا في بعض شخصياتها... فإمّا أن نعيش مجدنا فيها فنترك الكتاب مفتوحًا حتى لا نفقد هذا المجد ولا يهرب منا، أو نسقط فإذا نحن في الحضيض، فنسارع إلى إغلاقه بسرعة البرق.. وذلك لأنَّ الإنسان بطبعه يحبّ المجد والعلو، ولا يحبّ السقوط حتى لو كان سقوطاً على ورق!!

تلك الليلة عندما سألني روح عن معنى عبارة القتلة المأجورين، فرحتُ كثيراً لأنه غطّ في نوم عميق، لأنني لم أكنْ لأُجيد أيّ تعريف لها، فقد سمعتُها من نصر إحدى المرات وهو ذاهب في سبيله.. قالها على عجل كأنما كان ينتظره اجتماع في زمن آخر يعقده مع من هم مثلنا يتباحثون فيه عن كيفية الحصول على كسر الخبز، تلك القضية التي أصبحت الشغل الشاغل لأبناء مدينتنا....

الآن فقط فهمتُ معناها، وأتمنى لو تُدرج ضمن المناهج التي تُدرّس في المدارس والجامعات..

هؤلاء القتلة هم من وقفوا جنبًا إلى جنب مع أولئك الذين رسموا حدوداً لأوطاننا، بالرغم من أنّهم فقط اثنان، أحمقان في بلديهما كلاهما لا ينتمي للآخر ولا يتكلم لغة الآخر، لكنهما رسما حدودا، ومزّقا أخرى، شوّها تاريخ أمتنا حتى أسقطانا في براثن الجهل والتخلف، فتراجعتْ مسيرة الأمة للخلف بعد أن كانت في مقدمة الأمم، فأين نحن من ذلك الذي خرج على رأس جيشه وهو في الرابعةِ والسبعين من عمره؟؟ لفتح تلك المعروفة بفيّنا، وكان المرض قد اشتد عليه، ولكن هذا لم يثنه ولم يفتر من عزيمته، فمات في خيمته وعلى أرضها، بعد أن فتحها جيشه ولم يمت على سرير وثير وعلى وسادات الريش المستوردة..!!!!!!

ها أنا أتجاوز العشرين من عمري، أضيفوا إليها عمر أبي وأمي، وعمر نصر، وأضيفوا إليها أيضا سنوات فقدي لأخي روح..

انتظروا قليلاً فأنا لم أُنْهِ بعد...

عمري يقترب الآن من عمر مدينتنا، وقد أكون أكبر منها!! فأنا أكبر من الجميع حتى إنَّ عمري يفوق عمر أصحاب الكروش مجتمعين منذ أكثر من قرن، وعمّا قريب سوف يُدرجون اسمي في كتاب غينيس للشخص الأطول عمرا.. سيضيفونني كعمر لكنّهم سيتجاهلون بقية التفاصيل، فهكذا هي قوانين الكتاب وهكذا هي قوانين الحياة.. فعندما أموت لن يبقى من سيرتي سوى شهادة وفاة يؤرَّخُ فيها تاريخ وفاتي.. يعني.. أرقام.. فنحن في النهاية مجرد أرقام تبقى فوق الأرض بعد أن نصبح تحتها.. ومن الممكن أن يُكتب على شهادة وفاتي اسم آخر يرافقُ اسمي، قد يكون اسم صاحب الكرش، أو اسم جندي من الحرب التي لم أعُدْ أذكر في أيّ تاريخ حدثت، أو حتى اسم ثعبان من تلك التي زارت مدينتنا ذات عام، ولم أكن قد ولِدتُ بعد، أو أنني كنتُ مولوداً، ولكنني لم أعُدْ أذكر شيئاً!! فقد أكون من الحاضرين وقت الزيارة، وقد لا أكون!!.....

المشهد الثاني

استيقظتُ ذلك اليوم باكراً جداً وقد أَخَذَني الحنين إلى منزلنا فأخذتني قدماي إلى هناك، وكانتْ خطواتها سريعة، كأنها تريدُ أن تصلَ قبلي..

وصلتُ إلى أرض الوادي.. وقفتُ أمامه، وقد انهار سقفه، وأقفرتْ حديقته، عدتُ إليه وكأنّي ما فارقتُه بالأمس!.. تراءى لي بالرغم من تقدمه بالسن وعدم قدرته على الكلام، كأنه كان يعزيني بنظرته الحنون فأحسنَ العزاء، ولملمَ شتات روحي الممزقة، ثم أغمض عينيه، وكأنه كان ينتظر قدومي ليودعني الوداع الأخير..

فانصهر قلبي لهذا الوداع، وانتفضتْ مشاعري من أماكنها وغادرتها، وراحتْ تبكي بكاء المكلوم...

تركتُ أرض الوادي وسرتُ في طريقي إلى منطقة أعلى، واتخذتُ مكانًا لي على حافة مرتفعة، وأخذتُ أتأملُ البيوت من بعيد وبقيت هناك إلى أن لبسَ الكون عباءة الليل، فأطرقتُ بنظري نحو السماء أتأمل جمالها، فإذا بالقمر يغتصب جسد الليل أمام الكون، فيمزق عباءته السوداء بيديه الفضيتين، ويخترق جسده فيفض غشاء بكارته، فتتقاطر دماء فضية تملأ الكون ضياء....

تأملتُ كلّ نجم، ولم أغفلْ عن أيّ واحد منها، حتى أصغرها! فشعرتُ بلذّة عارمة للارتقاء إلى السماء، لأقطفَها الواحد تلو الآخر، وأزيّنَ بها خريطة سمائي الخاصة، التي تُطلّ على رقعتي أنا فقط، فلا يراها أحد

سواي.. هي ليست أنانية مني إنما هو حبٌ لنجومٍ قد تكون مهملة من الجميع إلاَّ منّي أنا...

أطرقتُ عائدًا إلى المدينة، فكان كلّ شيء ساكناً فيها إلا روحي، كأنها كانت تجلس على فوهة بركان، فخوفي على أخي أصبح يرافقني كصديق حميم، يلتصق بي ليل نهار، ولا ينفصل عني.... كيف لا وأخي الصغير بعيد عني!!.. كيف لا وأخي في ذلك القصر المشؤوم، يشبُّ على عادات أهله ويتقمّص سلوكهم...

سوف تقتلني أيها الخوف وأنت تلازمني كظلي..!!!!

لن أنسى ذلك اليوم البارد، زاد برودته فقدي لروح، آخر ما تبقى لي من أحبتي.. لن أنسى صاحب الكرش عندما دخل من بوابة الميتم يرتدي ذلك المعطف الذي تنكسر عند أعتابه جيوش البرد.

دخل وكان محاطًا بعدد من الكلاب التي يتهاطل اللعاب النجس من أفواهها، والتي ما سكتت عن النباح إلا بإشارة منه.. كان استقبالاً يعتريه الكثير من النفاق المقزز، وأظن يومها بأن القائمين على شؤون الميتم أنفقوا ما كان في الصندوق من الأموال المخصّصة للأيتام، فبكى الصندوق علينا كأمٍ فقدتْ قوت أبنائها...

ذلك اليوم قام أحد الموظفين بصف الأطفال جنبًا إلى جنب أمام صاحب الكرش، وبدأت الموسيقى تتعالى والأطفال ينشدون النشيد الوطني، وبعد أن انتهوا تقدم أحد الأطفال مقدما باقة من الورود ذَبلتْ بين يديه عندما أمسكها، ثم أخذ بحرث الأطفال بعينيه القبيحتين أكثر من مرة، إلى أن توقفتْ عيناه فجأة واستقرّت وتعلّقتْ بروح.. سقطَ قلبي من مكانه وترنّح، فسحقتْ تلك النظرة روحي وهشمتها.. لقد اختار روحًا،

قد أخبرني قلبي بذلك مذ رأيته يدخل باب الميتم، وكأنه أدمن على سرقة عائلتي الواحد تلو الآخر..

إلى أين يا روح.. صاحتْ روحي ذلك اليوم؟ هل ستغيبُ كما غاب بقية الأحبة؟ أتُراك تغيب وأنت الصغير الذي لا يقوى أن ينام من غير سماع دقّات قلبي كل ليلة؟.. أتراك تغيب وأنت الذي يهربُ من سكونِ الليل وصمتِه لِيندسّ كلّ يوم في فراشي، فلا ينام إلا وأنا أحكي له قصة يخترعها خيالي، وأخرى سمعتها من أولاد حارتنا في أرض الوادي... فما أصعب لحظات الفراق!! إنَّ للفراق وخزات تنخر في عظامنا كما السوس عندما ينخر الخشب ولا يتركه إلا عندما يتعبه ويقضي عليه فيحيله إلى ذرات واهنة مرهقة..

ذهب روح ذلك اليوم، ولم يسمحوا لي بتوديعه، أو حتى برؤيته من بعيد، فقد تجمّع الموظفون وقاموا بحبسي في غرفة بعيدة لا يُسمع بها صراخي...

فأي جريمة تلك التي ارتكبوها؟..

لن أسامحكم!! قلتها لهم بعد أن خلا الميتم من ذلك القاتل، ثم انفلتُّ من بين أيديهم باحثاً عن زاوية بعيدة أفرغ بها دموعي التي لم أسمح لها يومًا بالظهور أمام أحد...

جلستُ هناك حيث صديقتي، وأرخيتُ ظهري المتعب على ساقها الهرم، فتمنّتْ المسكينة لو استطاعتْ احتضاني وتخفيف ما بي من ألم..

آآآآآه يا روح، وكم من آه سوف يذرف لساني بعد اليوم؟ آه يا حبيبي كيف علمتنا الحياة أن نغمس مشاعرنا في حبر من الألم.. لتخرج متقمصة ذلك اللون القاتم، فتكتب على جدران قلوبنا أكثر جمل الحياة إيلامًا.... إنَّ

قلوبنا يا روح تعرف تماما طعم الألم، وتتقن تذوقه، وتعلم كيف تلتهمه حتى تأتي على آخر ذرة فيه...

فما أكثر سهام الغدر يا حبيبي، إنَّها تصيبنا من الخلف وتعرف مسيرها نحو القلب مباشرة...

المشهد الثالث

استيقظت مع أول خيط ضوء تسلّل إلى الأرض، مع أول خيط حاول إغواء قطرات المطر العفيفة على وريقات الأشجار، حيث دعاها إلى رقصة تانجو، وبعد أنْ وقعتْ في شباكه! راقصها إلى أن خُدِعت بمشاعره المزيفة، وحسن نيته، فتخلّتْ عن طهارتها، وعانقَته بقوة، ثم انصهرتْ به، فصرختْ واضطربتْ ثم اعتلتْ السماء إلى أنْ تلاشتْ... تمامًا كما هي مشاعري التي ما أن استيقظتُ حتى تبخرتْ... فما أصعب ذلك الأمس الذي فقدتُ به روحًا..!

انسحبتُ من فراشي بسرعة، وكأنما لدغتني أفعى، وأسرعتُ نحو الحديقة الخلفية للميتم، فكنتُ أول من استيقظ ذلك اليوم بعد الحارس الذي كنتُ قد عقدت معه صداقة لطيفة.. ألقيتُ عليه تحية الصباح، وواصلتُ مسيري نحو الحديقة.. جلستُ ملصقًا ظهري بحائط الميتم، وأرجعت رأسي للخلف ونظرت إلى الأفق البعيد حيث الشمس التي ولَدَتْ للكون صباحًا جديدًا، فبدتْ لي شاحبة ولم أرَ منها سوى بقايا وجه كان بالأمس فاتنًا وبرّاقًا.

نظرتُ إلى نفسي، فإذا بي لا أختلف عنها، فما أنا إلا كسمكة لفظها بحرها إلى الساحل، فترنّحتْ على الرمال باحثة عن خيط ماء، تتشبثُ به، فهو الحياة لها وانقطاعه يعني الموت.. فهل تفعل بحار المدن بأسماكها كما تفعل بحار مدينتنا؟؟؟

أغمضتُ عينيَّ فتشابكتْ أسئلة كثيرة في خلدي عجزتُ بدايةً عن تفريقها، فيا لها من أسئلة لم تتربَّ على احترام النظام، والاصطفاف في طابور!..

اضطررتُ إلى نهرها وتوبيخها فخجلتْ من نفسها، وانسحبتْ واصطفّتْ كل بدورها، فاستطعتُ تجميع شتاتي، وعدّلتُ من جلستي، وبدأتُ بطرح الأسئلة علّني أتوصل إلى إجابات عليها..!

... السؤال الأول..

لماذا اختار صاحب الكرش روحًا من بين عدد ليس بالقليل من الأطفال؟؟

..... السؤال الثاني...

كيف لي أن أخرج من الميتم ليلاً وبوابته تُغلَق باكراً؟؟

... السؤال الثالث...

كيف سأتمكن من تخطي كلّ الحراسات على بوابة القصر وحول أسواره؟؟

.... السؤال الرابع...

هل سأجد أخي هناك أم ماذا عساه فعل به صاحب الكرش؟؟

جلستُ متّخِذاً وضعيةً أكثر استقرارًا حتى تتمكنَ نفسي من الإجابة على أسئلتي..

أجابتني نفسي..

السؤال الأول.. جوابه مجهول..

السؤال الثاني... ستخرج من الميتم عن طريق مساعدة الشجرة المسنة والتي تتكئ على سور الميتم..

أمّا السؤالان الثالث والرابع فأجابتهما ستكونُ عندما تصلُ إلى ذلك القصر المشؤوم...

حزمتُ أمري على الذهاب للبحث عن روح هذه الليلة...

سمَحتْ لي الشجرة المسنة بتسلق أغصانها تلك الليلة، ولم أشعر بحنان يشبه ذلك الحنان الذي فاضت به علي إلا حنان أمي.. فقد طوّعتْ أغصانها لي، فكان خروجي أسهل مما توقعتُ بالرغم من علوّ السور...

وما أنْ أصبحتُ خارج أسوار الميتم، حتى احتضنتُ أغصانها، وأعطيتها قبلاً كثيرة، وأدّيت لها التحيّة، وانصرفتْ...

أخذتُ نفَسًا عميقًا، فانتشتْ روحي برائحة العطر الذي تعطرتْ به المدينة لعشيقها الليل.. وكانت قد ارتدتْ قميص نومها الأسود الذي زيّنتْه نجوم كأنها لآلئ انتثرتْ عليه بطريقة جميلة وعشوائية، ثم دعته وقالت له هيت لك، فقد طال انتظاري وها أنا بين يديك لا يفصلني عنك شيء، ثم نظرتْ إلى القمر، وغمزَتْه أن أغمضْ عينيك واتركْ تينك العاشقين يرتشفُ أحدهما رحيق الآخر. فانخسف القمر واحتجب وجهه وزال ضياؤه... فهل تعشق كل المدن كمدينتنا؟؟؟

ركضتُ وغمامات الخوف تسابقني، وتمطرني قطراتها كلما اقتربتْ خطواتي من ذلك القصر.. سمعت دقات الطبول داخل قلبي وكأنه يستعدّ لحرب أوشكت على البدء.. لن أنكر أبدًا بأنني على الرغم من تمردي إلا أنني كنت خائفًا.. تصارعتُ مع نفسي كثيرًا إلى أنْ طعنتُ الجبن الذي

تلبّسها بخنجر الشجاعة، وعزمتُ على المضي، فتسلقت السور إلى أنْ وصلت أعلاه.. حرثت الظلام بعينين ثاقبتين، باحثًا عن طريق غير مسدود، تلفتُّ من حولي، كلّ الطرق مسدودة، والمفتوح منها يؤدي إلى واد سحيق هو الموت بعينه، فأين أذهب ولا ملاذ لي؟.. انتظرت في الأعلى إلى أنْ شعرتُ بصمت اعترى ذرات الهواء الساكنة، ثم قفزتُ فتلقتني شجيرة صغيرة أحسستُ بألمها وبكائها على غصنها الغضّ الذي كسرْتُه من غير قصد مني... ضممتها إلى صدري ورجوتها أنْ تسامحني وتتوقف عن البكاء لئلا ينفضح أمري، واعتذرتُ منها كثيرًا..

تلفتُّ من حولي، المكان ساكن ما عدا حفلة صامتة أقامتها الأضواء المنبثقة من تلك المصابيح العجيبة الملونة.. استدرتُ نحو ذلك المدخل وألقيتُ عليه التحية حانياً جذعي قليلاً للأسفل واضعًا يدي اليمنى على صدري، ثم خاطبته بلهجة لطيفة تحمل خلفها حقدًا وتمردًا قائلاً له:

(هلا أعطيتني أيها المدخل الرائع جواز سفر لأعبر وألتقي بروح) غازلتُه وامتدحتُ جماله وأناقته لأحتال عليه.. عرفت كيف أتعامل معه، فكنت بعكس نصر الذي جادله تلك الليلة المظلمة وذمّه وشتمه وركله برجله، فاكتسب عداوته بالإضافة إلى عداوة الكلب ليكونا شريكين في جريمة قتل نصر..

بعد وقت طويل من الخوف والبحث، وجدت روحًا في إحدى غرف القصر، قادني بكاؤه وأنين روحه إليه، فلم تهدأ روحه تلك الليلة إلا عندما رآني، ضممته إلى صدري وقمت بدور الأم مانحًا إيّاه حبي وحناني وشوقي وشجاعتي المزعومة..

(لا تخف يا حبيبي سوف أخرجك يوما من هنا سأخرجك من هذا المعتقل).. قلت له...

(ألن تقص علي قصّة يا أخي؟)

قال روح والدموع لا زالتْ تنزلُ ساخنة من مكامنها..

(هيا تعال إلى حضني أيُّها المشاكس لقد اشتقت إلى قربك ودفء جسدك، كما واشتقت إلى أنفاسك المعطرة... استعد فإنَّني سوف أقص عليك قصة جميلة ولكن عليك أن تعدني بأنْ تكون رجلاً ولا تبكي بعد اليوم..)

نام روح على أنغام كلماتي ثم غادرتُ بعد أنْ تركتُ قلبي غافيًا على سريره ليعطيه الدفء والأمان..

المشهد الرابع

أذكر بأنني عندما خرجت من القصر تلك الليلة جلست على صخرة بجانب الطريق، فرأيت من بعيد بيوت الفقراء في أرض الوادي، حيث نشر القمر ضياءَه عليها فظهرت لي كأنما الواحد منها يتكئ على كتف الآخر كأنها تواسي بعضها، فالناظر إليها من بعيد يراها كئيبة كأنها أوراق أشجار تساقطت في نهاية الخريف، بعدما لفظتها أمهاتها من الأشجار لتقاوم برودة الشتاء القادم، مثلها مثل مدينتنا التي لفظت تلك البيوت الحزينة خارجها.. فهل تفعل كل المدن كما تفعل مدينتنا؟

الشيب يغزو جدائل الليل كلّما اقترب ميلاد الفجر، فيهرم وتشيب الجدائل بالكامل، تمامًا كما هي الحياة ميلاد وموت.. فلحظة الميلاد لا تختلف كثيرًا عن لحظة الموت، ففي كلتا اللحظتين تكون محاطًا بعيون ترقب إما دخولك للحياة أو خروجك منها، فكم هي صعبة فلسفة الحياة لجميع الكائنات وما يعتريها من تغير في أحوالها، فمن فرح إلى حزن ومن أمل إلى يأس وتارة الأمل يطغى على اليأس والفرح ينتصر على الحزن!!

بينما هذه الأفكار تتدافع في رأسي محدثة تلك الفوضى المزعجة، إذ بشيء يحطُّ بخفة على كتفي الأيمن، ارتعدتْ له أوصالي، فالتفتُّ بسرعة وقد دبّت قشعريرة في جسدي.. فإذا برجل كهل يظهر الوقار على وجهه، والهيبة على قامته، يخاطبني بصوت هادئ قائلاً:

(.. لا تخف يا بني إنّني الحكمة قد سمعت بوح روحك العطشى الذي وصلني كترانيم عصفتْ بفؤادي فرحًا، فجئتك مسرعًا لأرويها لك..).

لقد كان الرجل غريبًا حتى إنّه كان يرتدي معطفًا أغرب من كلماته وامتثاله أمامي في هذا الوقت من الليل..

دعوته للجلوس.. فجلس إلى جواري وقال:

(لقد قرأت أفكارك يا بني وقرأت فلسفتك للحياة، فقررت النزول عند رغبة روحك لمساعدتك على تخطي آلامك..).

كان المعطف الذي يرتديه لافتًا للنظر، فهو عبارة عن معطف من كتب، تحمل عناوين كثيرة استطعت حفظ بعض أسمائها، ولم أستطع تذكر البقية لكثرتها..

فسألته والحيرة تملأني:

(من أين جئت يا صديقي؟ فأنا أظنّ بأنك غريب عن مدينتنا؟؟

فأجابني..)

(قد جئت من ذلك العصر الذي كان الكتاب فيه ملكًا متوجًا على مملكة المثقفين..)

وبدأ يتحدث بلسان طليق، ويتنقل بين الكتب والعصور وأقسم بأنني لم ألتقِ بمن هو أكثر ثقافة منه.

تكلم ليلتها بكلام أبهرتني ألوانه فارتسم أمامي كأنه لوحة رسمها أمهر الرسامين...

لا أعلم لماذا اختارني أنا؟ والحمد لله أنه اختارني.. فقد أعطاني من الحكمة والثقافة ما لم ولن أتعلمه حتى لو عشت قرونًا كثيرة، كان لقائي به أهم منعطف في حياتي.. سألته الكثير ولم يبخل بالإجابة وكأنما أغرف من نهر لا ينضب ماؤه أبدا...

تمنيت لو يستطيع اصطحابي إلى عالمه ذاك..

فقال لي ليلتها:

(سوف نصنع عالمًا مثله إن أردت يا عاصي، وأردف.. لقد كنت نائما وقد أيقظني صوت روحك...).

منذ تلك الليلة التي التقيته بها وأنا أولي هاربًا من المدرسة لأعمل في محطة لغسيل السيارات، لأتمكن من شراء ما أريد من الكتب.. فانكفأت عليها معظم ساعات الليل، حتى أنستني الكثير من همومي إلى أن أصبت ببوليميا القراءة، فأصبح رأسي يزخر بثقافات ومعارف، كثيرة ساعدني الرجل الحكمة على حلّ ما كان يشكل فهمه عليّ منها، فازداد وعيي وتفتحت مداركي، فأدركت هالة الظلم التي تحيط بنا والتي حافظ أصحاب الكروش على بقائها حولنا...

المشهد الخامس

بعد زيارات متكررة تحفّها المخاطر إلى القصر حيث أخي روح، ولقاءات كثيرة مع الرجل الحكمة واطلاعي على الكثير من الكتب، قررت أن أقص على روح حكاية الغابة الحزينة وما مرت به من انكسارات منذ ولادتها..

اليوم هو موعد زيارتي له..

انطلقت في طريقي إلى روح، واقتربتْ خطاي من القصر، فأسعدتني وقد أطلتْ بأغصانها نحو الشارع تترقبُ حضوري بلهفة في نفس الموعد المسائي لكل زيارة.. تسلقتُ السور والذي كنت قد ألفته وألفني وكأنني قد أصبحتُ من أصحاب المكان، وعندما وصلت للأعلى داعبت أوراقها وقبلتها.. كان لقائي الأول بها كما أخبرتكم سابقا عندما جئت أول ليلة إلى هذا المكان متقصيًا عن مكان روح، ليلتها عندما قفزت من أعلى السور إلى أرض الحديقة تعثرتُ بغصن غض من أغصانها فانكسر وقد أخذتْ وقتها بالبكاء بمرارة وكانتْ حديثة عهد بالمكان، تألمتْ تلك الليلة وذرفتْ الكثير من الدموع على غصنها الذي فقَدَته بسببي، كما وذرفتْ دموع غربتها وانتزاعها من مكان مولدها.. بكتْ تلك الليلة أوراقها قطرات باردة انزلقت إلى تربتها، فضممتُها حتى سكنَ ألمها فما كان منّي إلا أنْ مزقتُ قميصي وجبَّرتُ كسر الغصن بإعادته إلى مكانه ولفّ القماش حوله بإحكام، ثم عقدنا صداقة لا زالت باقية وقوية إلى الآن، فكلّ صداقة غير صداقة بعض البشر تربح وتبقى..

دخلت غرفة روح من النافذة كالمعتاد وكان بانتظاري.. تعانقنا عناقًا طويلاً وبكى كلانا إلى أن امتزجت دموعنا.. تحدثنا طويلاً وكان استيعاب روح لكلامي قد أصبح أفضل من السابق، فقد زادت سنوات عمره خمسًا، وأصبح الآن في العاشرة من عمره..

وقف قبالتي وطلب مني ككل مرة أن أقيس طوله بالأشبار.. فلماذا يستعجل روح العمر وماذا تخبئ له الأيام؟؟

اتفقت معه على أنه قد كبر على حكايات فلة والأقزام، وليلى والذئب، وأنني منذ الليلة سأبدأ بحكاية لا يعرف حقيقتها إلا الرجال.. فرقص فرحًا بذلك واقترب مني حتى أصبحت المسافة التي تفصلني عنه أقل من شبر..

وقال:

(انظر يا أخي لقد نبت لي شاربان أتراهما يا عاصي؟؟ هذا يعني أنني كبرت وأصبحت رجلاً أليس كذلك؟؟)

قرصت شفته العليا وقلت له بأنه بالفعل قد أصبح رجلاً بشاربين عما قريب ينموان، وسيصبحان كثَّيْن كباقي الرجال... بعد أن أمضيت معه وقتًا سعيدًا تمدَّد على سريره، وطلب مني أن أسرع بقص حكايتي التي لا يعرف حقيقتها سوى الرجال!!

تقول الحكاية يا روح....

كان هناك غابة كبيرة يرأسها أسد عادل، وكانت تضج بساكنيها من مختلف الحيوانات، منها الطيب ومنها السيِّئ ومنها شديد المكر...

وكان هناك عائلة من الثيران تعيش عليها، والتي طالما تمنّتْ أن تستولي على كامل الغابة، فعملتْ الكثير واجتهدت حتى يصبح الحكم فيها للثور

الأكثر جاهًا ومالاً ومكانة في تلك العائلة، كان الثور الكبير دائم الزيارات لعرين الأسد العادل، ليثبت نفسه هناك.

اعتمد الثور على أبنائه في إدارة أمواله وأملاكه، والذين كانوا أشد من أبيهم طمعًا وحبًّا للمال والجاه، فاتفقوا مع مجموعة من الثعابين الخبيثة كانت تعيش في جوارهم، والتي يفوق مكرها مكر أولئك الثيران، إنها يا روح ثعابين لا تشبع أبدًا ودائمة الطمع بما ليس لها وملكًا لغيرها، فالتقت أطماعها بأطماع الثيران الراغبين باقتطاع أجزاء من أملاك الأسد العادل، وبدؤوا يحيكون المكائد والمخططات، بالاتفاق مع بعض المنتفعين الذين كانوا يلتفون حول الأسد العادل، لكي يسيطر الثور الأكبر على حكم مساحة واسعة من أملاك الأسد العادل، وبذلك يحصل هو على ما يريد، وكذلك تحقق الثعابين على مصالحها وتجني الأموال والخيرات من تلك الأرض، فكان للثور ما أراد وحصل على حكم تلك الأرض، بعد أن اتفق مع الثعابين ووافق على شروطهم لتقديم الدعم والعون له، توقفت مع روح عند هذا الحدّ من الحكاية لأنَّ النعاس بدأ بزيارة عينيه فاردًا جناحيه عليه...

قبلته، وانسحبت من فراشه بعد أن أغمض عينيه وتأكدت بأنه غطّ في نوم عميق، أسدلت الغطاء عليه وانطلقت مغادرًا غرفته إلى خارج القصر....

المشهد السادس

كثيرا ما نجتمع في هذه الحياة مع أناس لا يشبهوننا، لكن قد نتقاطع معهم في نقطة واحدة فقط، قد تكون كفيلة بأن تجعلنا متشابهين.. فأنا وسلمى جمعنا زمان جائر في مكان واحد، فتشابهنا في أشياء كثيرة، أنا وهي تقاطعنا في نقطة تسمى اليتم أو بمعنى أصحّ الفقد، فكانت البداية من هنا وبعد ذلك كانت نقاط التقاطع تزداد، فيزداد تشابهنا حتى أصبحت سلمى هي الوطن الذي ألجأ إليه وأعيش فيه...

فسلمى التي أقبلت ذات نيسان كزهرة نرجس لم يتفتح برعمها بعد.. كانت هي الناجية الوحيدة من عائلتها المكونة من أبيها وأمها الحامل بأخ كان سيولد بعد أيام، لولا ذلك الحادث الذي سلبهم حياتهم وتركها هي في صحراء الحياة المقفرة إلا من أشواكها القاسية، فيا لتعاسة الحياة كيف تلقي بنا في متاهاتها المظلمة؟؟

دخلتْ الميتم وهي تضمُّ يدها اليمنى وتفرك بها عينيها الحائرتين الباحثتين عن أمانهما المسلوب.. أمّا يدها اليسرى فقد كانت سجينة يد المربية.. فأي حظ هو لك يا دموع سلمى؟ أتنكرين أيَّتها الدموع بأنّك انهلتِ ذلك اليوم تلثمين يدها وخديها مرات عديدة؟...

تلك هي سلمى.. إنّها أيقونة الصباح الجميلة، والتي أصبحتْ لي وطنًا وأمانًا... أحببتها وكنتُ أول من رآها، وقد كبرتْ دفعة واحدة فاجتاحتْ قلبي، عندما رأيتها لأول مرة، وقد تفتحت براعمها عن أجمل زهرة..

قد تكون سلمى فتاة عادية في نظر الجميع، فهي لم تكن الأجمل ولكنها بعيني كانت كذلك، وكما قالت ليلى للخليفة هارون الرشيد بعدما أصرّ على إحضارها ليرى تلك التي أخذتْ عقل المجنون.. فسألها منكرا:

هل أنت المرأة التي هام بها المجنون؟؟ وأردف: ما الذي جعلك امرأة يهيمُ بها.. مع أنكِ لستِ سوى امرأة عادية!!..

فتبسمت ليلى وصعقته بإجابتها قائلة.. (نعم أنا ليلى لكنك لستَ المجنون، ويجب أن تراني بعيني المجنون لكي تحلّ هذا اللغز الذي يُدعى الحبّ) وهكذا كانت سلمى، فجمالها لا يراه سواي...

كنا نلتقي أنا وهي في الحديقة الخلفية للميتم خلسة عندما ينام الجميع...

كنت أحبها مع أنها كانت دائمة الصمت، ولم تعلن مرة عن مشاعرها تجاهي...

أذكر بأني التقيتها ذات مساء بعد أن ستر الليل بعباءته على جسد مدينتنا العاري.. فجلسنا على مقعدنا الحجري والذي يطرب دائما للقائنا.. نظرتُ وقتها إليها وسألتْها عيناي:

(أتحبين صاحبي يا سلمى؟)

فنظرتْ بعينيها الواسعتين نحو السماء، وأمسكتْ بخصلة شعرها التي كانت منهمكة بمغازلة خدها وتهيم غرامًا بصاحبته، وثبتْها بعد أن اعتقَلَتْها بأصبعيها خلف أذنها القطنية اللون، وما هي إلا ثوان حتى بدأتْ تبكي بصوت مخنوق لا يكاد يسمعه غيري، أنا والمقعد الذي نجلس عليه، فكانت دموعها وهي تنزل، تدوس بخطاها قلبي الذي تمزق حزنا عليها..

سلمى دائمة البكاء والحزن فهل السبب ما حصل مع عائلتها؟ هل شاهدتْ والديها يموتان أمامها بقسوة؟؟ بكتْ إلى أن شعرتْ بأنها قد ارتاحتْ دواخلها، ثم صمتتْ ولم تنبسْ ببنت شفه..

بقينا على هذا الحال نتفقد نجوم السماء لساعة مضتْ من الليل، ثم أمسكتُ يدها وقلت لها بأنني لم أصطحبها في هذا الظلام لأتسبب لها بأي ألم، فألقتْ برأسها على كتفي، وعندها لفحتْ أنفاسها المعطرة برائحة النارنج أنفي، تسربتْ حتى لامستْ كل خلية في جسدي حتى كاد يغمى علي، لولا أنني تمالكتُ نفسي من سقوط أكيد، ثم أمسكتْ بيدي وضغطتْ عليها ورمقتني بنظرات لم أستطع ترجمتها.. فربتُّ على كتفها وأوصلتها إلى باب الميتم.. وعدت أنا إلى الحديقة أشكو لها أشواقي المكبوتة بداخلي لسلمى...

المشهد السابع

اقتحمتْ شمس ذلك اليوم أرجاء مدينتنا بحرارتها اللاهبة، حيث اختبأت الطيور بين أغصان وأوراق الشجر بحثًا عن الظل، وهروبًا من لهيب الشمس، فشعرتُ بأنّ كلّ شيء في مدينتنا بدأ ينصهر ويضمحل، إلا الظلم داخل القصور، فقد أخذ يكبر ويتقلب يمنة ويسرة على برودة الهواء الذي ينبثق من المكيفات....

يومها رأيتُ الموت يختبئ تحت كل حجر.. تحت أوراق الشجر المتراكمة على الأرض.. في العيون المتربصة لقمامة القصور.. مدينة تختبئ تحت كل شيء وفي أي شيء فيها، الموت لأبنائها.. فكل يوم جثة تموت جوعًا وتتعفن ولا يعلم عنها أحد، إلا عندما تخرج روائحها تتجول في الطرقات، تبحث عن أحد يدفن صاحبها.. قريبًا ستتحول المدينة إلى مكرهة صحية، ويهجرها أصحاب القصور إلى حيث أعدوا لهم جزرا خالية من أمثالنا.. جزرًا تجلس فيها زوجاتهم على سواحلها بالمايوهات، يصبغن أجسادهن باللون البرونزي.. وهم يزنون ويعاقرون الخمر في ملاهي العهر..

قريبا سيتركون المدينة خاوية إلا من روائح الموتى، وسيؤرخ التاريخ أعمالهم كما يؤرخ التأريخ الجيولوجي لمرور ديدان حقيرة مرت في فترة من الفترات على صخرة ما، فشوّهت منظرها ولم يبقَ إلا أثر مرورها المقزز والذي تعافه الأنفس..

فكم داعبتْ أنامل الظلم لقمة الفقراء بعد أن اغتصبتها من أفواههم، وكأن هذه الأنامل لا يشبع أصحابها ولا يقنعون بما تكدَّس عندهم حتى يسطوا على قليل هؤلاء!!..

فأين الفضيلة؟

وهل تضيع الفضيلة بغير مدينتنا أيضا؟ وهل السبب هو ذلك السحر الغربي وتأثيره على أصحاب الكروش؟ أم أنها غير موجودة أصلاً في جيناتهم الوراثية؟ فكم من ليلة كنا لا ننام بسبب ما نسمعه من صدى أصوات معدنا الخاوية، وعصارتها ترتطم بجدرانها، فنمسك وسادة ونضغط بها بطوننا لنوهمها بالامتلاء، فتقل الجلبة المتسربة إلى آذاننا منها، ونبقى هكذا ما بين سكون وضوضاء حتى تتأرق أعيننا من قلة النوم.. فلماذا يحصل هذا يا أصحاب الكروش وقد جاد آباؤنا بأرواحهم دفاعًا عن مدنٍ احتضنت قصوركم؟

ولكن يا مدينتي تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وكذا هي المقادير تجري على أعناق الخلائق دون أن يكون باستطاعتنا تغيير شيء منها.. وأنت يا حبيبتي لا يد لك بما حصل لكنهم أصحاب الكروش..

قد مللت من كتابة هذه العبارة فمتى عساي أنتهي منها؟ متى تنقرض قصورهم وينقرضون معها؟ متى يصبح مكانهم فقط في متاحف كُتِب عليها من الخارج (متاحف العار) فتُعرَضُ كديناصورات كانت في زمن ما، فيبصق عليها كلّ من يمرُّ بها ويكتبُ عنها الباحثون والمهتمون بالحضارات كُتباً تحت مسمّى (ديناصورات دمَّرت حضاراتها)!!!!!!

المشهد الثامن

أسرعتُ إلى حيث روح ينتظرني، وعندما وصلت وجدت بأن شوقه لي لا يقل عن شوقه وفضوله لمعرفة أحداث الحكاية....

(هيا يا عاصي أكمل الحكاية، فالفضول يقتلني لأعرف ماذا حصل بعد أن أصبح الثور الأكبر حاكمًا على تلك الأرض، وما قصة تلك الثعابين الغريبة؟) قالها روح بلهفة..

(حاضر يا حبيبي وأصغِ إليّ جيدا) قلت له..

إذن فلنبدأ.....

بعد أن تسلم الثور الأكبر الحكم على تلك المساحة من الأرض، صار مسؤولاً عنها بالإضافة إلى تكليف مندوب فيها من قبل الأسد العادل بهدف إطلاعه على أخبارها، والاطمئنان على أحوالها..

إلا أن الثور الأكبر "كبير عائلة الثيران" صار لاحقًا يعقد لقاءات سرية مع الثعابين، لتسوية مصالح الطرفين بعيداً عن أنظار الأسد العادل ومندوبه، وبمكر ظلّ يظهر الودّ للأسد العادل، ويأخذ منه العطاء ويتكسب، وكذلك فعل مع الثعابين، أي أنّه كان يتذبذب بين الطرفين.

كان الأسد العادل حكيمًا نبيلاً، بنَى ملكه، على الخير ومحبة كلّ الحيوانات له، على اختلاف أنواعها وفصائلها، وذلك لعدله واستقامته، وتمكن من جمعهم حوله بكل محبة، إلا أنَّ بعض الحيوانات الطماعة والخبيثة كانت تضمر الشرّ له ولسكان الغابة الطيبين.

ولما كان الثور الأكبر وأبناؤه والثعابين، يبغضون الخير ولديهم الكثير من المكر والخديعة، حاكوا خطة لإسقاط الأسد، وحرضوا باقي الحيوانات التي تسكن تلك الأرض، ليقوموا بثورات عمّت أرجاء الغابة، وجمعوا جيش مرتزقة من الحيوانات المشردة، وتمكنوا من إسقاط حكم الأسد العادل، وتنحيته عن ذلك الجزء من الأرض التي كان ملكًا عليها، وكانت الثعابين قد اتفقت مع الثور الأكبر أنْ يصبح حاكمًا لتلك الأرض، لكنها احتالت عليه ولم يحصل على ما كان يصبو إليه.

(يكفي يا أخي رأسي يكاد ينفجر مما حصل، فلماذا حدث كل ذلك؟؟) قال روح وقد بدا شديد الحنق..!!

نتابع الحكاية في الزيارة القادمة يا روح.. ولم أكمل كلامي حتى كان النوم قد افترس روحًا..

أتمنى لك أحلامًا سعيدة يا حبيبي..

جلست قليلاً أتأمل وجه أخي وأغوص في ملامحه التي كانت تحمل ملامح أمي.. تمنَّيت وجودها في هذه اللحظات لأحظى منها بعناق يُذهِبُ كدر روحي، فنحن أيتام في كلّ شيء، حتى إنَّنا غدونا نعاني يتمًا في عواطفنا نفتقد الحبّ والحنان الذي حُرمناه منذ كانت قلوبنا تتمشى على كورنيش الفقر كلّ ليلة، وتعلق فوانيس اليأس والحزن هناك...

جلستُ طويلاً إلى جانب روح المسكين الذي لم يرَ أمَّنا.. سماه أبي روحا لأن أمي فارقتها روحها وهي تلده فأخي روح هو روح حيّة خرجت من أخرى ميتة.. فقدَ حنان أمي في أولى لحظات حياته فكان أبي هو الأب والأم معًا.. خرج روح إلى هذه الدنيا وهو ملطخ بدماء الولادة ودماء الفقد، وتذوق مرارة اللطم قبل أن يتذوق طعم الحليب.. لم يستطع أبي

وقتها أن يؤمِّن ثمن تكاليف ولادة أمي في المستشفى، فمن أين يأتي بالمال وهو الذي فقد وظيفته باكرا، وكيف تلد أمي في المستشفى ونحن لم نكن نملك ثمن الخبز؟

اضطر وقتها أن يستعين بتلك القابلة العجوز التي لم تعد ترى جيدًا، بالإضافة إلى أنَّ ولادة أمي قد تعسرت بسبب فقر الدم الذي أصابها أثناء الحمل الناتج عن سوء التغذية، فعندما جاءتها آلام المخاض أُصيبت بنزيف حاد أفقدها الحياة، لكنّها أهدت الحياة قطعة منها حافظتْ عليها إلى اللحظة الأخيرة من حياتها...

فاضت دموعي عنوة عنّي، فخرجتْ حارة جداً أحرقتْ الأماكن التي لامستها وهي تندفع بسخاء، مسحتُها بطرف يدي... وانتفضتُ من مكاني، وكدت أن أوقظ روحًا، لكنني أسرعتُ بخفة وخرجتُ من ذلك القصر الذي تكرهه نفسي، وتوجهتُ إلى المكان الذي ألتقي فيه بالرجل الحكمة، فهو الذي يخفف عني الكثير من ألم الحياة..

بالفعل كنت بحاجة إليه تلك الليلة، فقد أحببت أن أستزيد ثقافة على ثقافتي.. أريد أن أرتشف من رحيق المعرفة ولا أشبع وأتنقل بين أزهارها وأنتقي ما يحلو لي من أخبار الغابرين وحكمهم لينتهي بي المطاف إلى قولبتها عسلاً في خلايا تكون شفاء لكل ذي جهالة...

التقيته تلك الليلة وكان حديثه مهمًّا جداً، فقد تناقشنا حول موضوع قد يكون له يد في تخلف المجتمع وتراجعه، تحدثنا عن بعض العادات والتقاليد وآثارها في مجتمعاتنا العربية، فعزونا لها أسباب قتل الإبداع، والرجوع بالمجتمعات إلى الخلف.. فإلى متى سنظلّ ننكفئ على رؤوسنا، متشبثين بأرجلنا بسقف العادات في كهوفنا المظلمة التي اعتدنا عليها؟

كيف لنا أنْ ننسى نور الشمس الذي يكشف كلّ ما دندن عليه الظلام.. إلى متى؟؟ ألن نحطم هذه الظلمة بنور المعرفة؟ إلى متى سنبقى كالخفافيش ننادي بأن هذا نهج الأجداد، ونهج الأجداد لا تُنتَهك حرمته.. فلنقمْ بوأد عاداتنا السيئة لكي تتعافى مجتمعاتنا، لعلّنا نصل إلى مصالحة معها، دعونا نهِلْ عليها من تراب الثقافة لنخلصها من همجيتها ورجعيّتها.

المشهد التاسع

إنَّني مصاب بتخمة في ذاكرتي.. تخمة تتسبب في توقف نبضات قلبي للحظات.. ذهبت لزيارة الطبيب مرارًا، لكنه ما زال ينصحني نصائح لا تختلف عما سبقها.. مثل..

لا تكثر من التهام الذكريات..

أو امشِ لمدة نصف ساعة يوميا بعد تناولها..

حاولت التخلص من تلك التخمة متبعًا نصائحه بالرغم من عدم اقتناعي بها!!

نجحت في المشي لمدة نصف ساعة، لكنني لم أنجح يوما في أن لا تمتد يدي لفتح خزانة الماضي، والتهام جميع ما بها من ذكريات معتقة.. فمنها ما مضى عليه قرن، ومنها ما هو أكثر من ذلك.. ولم أتوصل إلا لنتيجة واحدة، هي أنني لا أستطيع تقليل التهامي لها، وسيظل دماغي عاجزا عن هضمها، وسيبقى ألمها يدقُّ كلَّ جزء من رأسي حدَّ الموت.. وأنني لن أتخلَّص من تلك الغيبوبة التي تعاودني بسببها..

دخلت مرة في غيبوبة قصيرة، فإذا بي أقاتل مع أبي على جبهة القتال وأحميه بجسدي من أية رصاصة غادرة، لكنه لم يلتفت لي وكأنه لا يراني أبدا..!!

رأيتني أحاول تمرير أصابعي على جسده الذي اشتاقت له كثيرا، لكنني لم أستطع، فكأن أصابعي تغوص في دخان! إنه.. مجرد دخان يتصاعد

للأعلى، وفي كلّ مرة أحاول لمسه لأحصل على بركة جسده الطاهر تتكلّل محاولاتي بالفشل..

ثم فجأة أجدني أنتقل من تلك الجبهة فإذا بي مع أخي نصر، وهو يقلِّب القمامة باحثاً عن كسر الخبز، وأنا أراقب الطريق لئلا يرانا أحد فيظن بنا ظنّ السوء، فقد انتشرت في تلك الفترة قصة المتفجرات التي توضع في براميل القمامة.. وأثناء مراقبتي إذ برصاصة تخترق الهواء متجهة نحوي، فإذ بي أتسمر في مكاني.. تمرُّ اللعينة من جانب رأسي فتتجاوزني متجهة للخلف.. فأحمد الله أنها أخطأتني.. أتحسّسُ رأسي لأتأكد بأن الرصاصة لم تخترق رأسي.. (فبعض الرصاصات تقتل وهي صامتة) حمدت الله فقد تجاوزتني الرصاصة بالفعل.. لكنْ هل تُراني قد نسيتُ أخي نصرا؟ يا إلهي إنّه خلفي، فهل يكون هو المقصود؟ لكنْ كيف أنستني أنانيتي أخي؟ لِمَ لَمْ أخشى أن تصيبه هو عندما تخطتني؟ ألم يخطر ببالي بأنَّ نصرا قد يكون هو المقصود؟ يا لخذلاني له.. لِمَ لم أحمه؟ لِمَ لم أتلقَّها برأسي عنه؟ أحسست بشيء حار يتسرب إلى داخل حذائي المثقوب ويلتصق بقدمي.. نظرت للأسفل فإذا بسائل أحمر... يا إلهي إنَّه دم.. حاولت الالتفات للخلف لأطمئن على سلامة نصر، لكن حركتي كانت قد شُلّت تماما.. فملتُ بجذعي قدر استطاعتي فلم أجد أخي! لكنني رأيتُ يدين مقطوعتين، دقّقتُ بهما... يا الله إنهما يدا نصر تسقطُ للتّو منهما كسر الخبز!..

حاولتُ الاقتراب منهما لكن بلا جدوى صرختُ بأعلى صوتي، لكنّه صوت غير مسموع، فكأنّه كان مسجونًا داخل ناقوس مفرغ من الهواء... يا إلهي إنني أختنق.. صرخت أريد هواء.. أوكسجينًا.. تسارعت دقات قلبي فإذا بروح يهزني ويصرخ.. ما بك يا أخي؟؟..

إنه كابوس فهيا استيقظ.. استعدت أنفاسي فإذا بي بجانب روح وهو ملقى على تلك الفرشة الملعونة، ويرجوني بأن أخلصه من ذلك القصر المشؤوم.. لقد كان يرتجف وهو يشرح لي ويقول: إنني يا عاصي أشتم رائحة الدم هنا كل يوم ولا أسمع إلا نباح الكلب الذي قضّ مضجعي ومنعني من النوم، إنه يا أخي مصاب ببوليميا الطعام فهو لا يشبع، قد سمعتهم مرة يقولون بأنه منذ أن أكل تلك القطعة من اللحم بعد أن ظل ينبح ليوقظ سيده محذّرا إيّاه من لص دخل المنزل، وهو لا يشبع مهما قدموا له! وسمعتهم أيضا يقولون بأنه لو لم يكن كلبًا متمرسًا لقتلوه وتخلصوا من نهمه.. إنَّه يستدرجني يا أخي، وأشعر بأنه يشتهي جسدي ويريد التهامي..

صرخت وصرخت حتى كادت روحي تخرج مني، فإذا بأحدهم يهزني من كتفيّ فاستيقظتُ وقد كان العرق يتفصد من جبيني فإذا بي في غرفة مطلية باللون الأزرق محاطًا بأشخاص يرتدون مراييلَ سوداء...

آه تذكرت.. لقد دخلت بغيبوبة أثناء محاولات للطبيب، بإخضاعي لعملية تنويم مغناطيسي لعلّه يتوصل إلى حلّ لمشكلتي مع تلك التخمة الخطيرة..

قال لي الطبيب بعد أن استفقت من تلك الغيبوبة الملعونة:

(في المرة القادمة قد يدخل جسدك في الغيبوبة قرنًا من الزمن، إذا لم يستجب للعلاج..).

(صرخت: لمدة قرن؟؟)

فأجاب الطبيب:

(نعم وربما أكثر!!)

فلم يخطر في بالي وقتها إلا شيءٌ واحدٌ!!!..

[هل ستبقى مدينتنا على قيد الحياة بعد مرور قرن من الغيبوبة، أم أنني لن أجد إلا لحدًا كُتب على شاهده.. توفيتْ ذات عام بعد أن خاضتْ بكل شجاعة مع أبنائها معركة الجوع، ضدّ أصحاب الكروش]

المشهد العاشر

قلمي ينزف لسلمى....

حتى رياح الشتاء الرطبة تتحرش بالستائر التي تخبئ خلفها محتويات غرفة سلمى، هدفها من وراء ذلك سلمى، فمرة رأيت تلك الرياح وهي تتسلل إلى الغرفة، فما أن رأت سلمى حتى وقفت مشدوهة بجمال ما تكشّفَ من جسدها القرمزي، وهي تهم بتبديل ملابسها، فأغمي عليها لجمال ما رأتْ، وما أن استعادت وعيها حتى انقضتْ عليها بكل خفة، ودون إصدار أي صوت، فقد تجرأتْ تلك المأفونة على فعل ما لم أتجرأ أنا على فعله، فالتصقتْ بجسدها وراودته عن نفسه، ثم ما برحتْ أنْ لثمته بقوة.. يا لتلك الرياح، إنها شجاعة جداً وكم أنا جبان، وحين شعرت سلمى بأنَّ هناك من يتحسس جسدها بأصابع باردة، تذكرت أنها نسيتْ النافذة مفتوحة، فأسرعتْ لإغلاقها وإسدال الستارة الخرقاء عليها، فإذا بسائل ينزلق على جسدها!.. إنّها قطرات تركتها الرياح على جلدها الناعم، بعد أن أحرقتْ شبقها عليه..

تلك هي سلمى حتى الرياح تعشقها، فماذا أفعل وأنا أكمن هناك في النقطة اللامرئية من قلبها؟.. فما أنا إلا مسافر يخرج من تلك النقطة ويعود إليها دون أن يُرى له أيّ ظلّ.. فكيف لي أن أعبر بكل حقائبي الثقيلة إلى تلك المرئية من قلبها؟.. كيف لي أنْ أنتقل من نقطة لا مرئية إلى أخرى مرئية بقدمين واهنتين، تتعثران بأصغر حصاة قد تصادفهما، والطريق بين

النقطتين مزدحم بالحجارة الكبيرة، والتي عجز نهر حبي عن المرور بها ونحتها، لتصبح حصيات مدورة لا تخدش من يحاول المرور من فوقها؟.. قد فشل نهري في جرفها وإزالتها من طريقه.. فأنا فاشل ولن أكون فقط في النقطة اللامرئية، بل سأصبح أنا تلك النقطة بعينها، وهي نقطة مهملة عندما تكون في أي مكان، نقطة عمياء لا ترى ولا يراها أحد.. سأبقى نكرة بالنسبة لها، ولن أتعدى أنْ أكون صفرًا على يسار أرقامها.. فيا ليتني أستطيع أن أصل إلى ذلك الصفر الذي مكانه اليمين..

آه.. لقد نسيت بأنني أيضًا فاشل في مادة الرياضيات ولا أتقن لعبة الأرقام، ففي كلّ مرة كنت أدخلها أكون أول الخاسرين، لكنني سأظل أكتب لها إلى أن أنتهي من جميع حروف الأبجدية.. ثم سأخترع أبجدية جديدة تتناسب مع أشواقي لها.. أبجدية لا يستطيع أحد غيرنا قراءتها.. أبجدية لا تحتاج إلى جوازات سفر لتمر عبر قارات حبّنا.. أبجدية تغرق حالما تطأ قدماها بحر حبها.. تجرفها تياراتها إلى الأعماق، إلى أقصى نقطة في قلب بحرها، ثم تغلق على نفسها هناك، وتشيخ وتهرم، فنموت معًا، وتموت معنا أبجديتنا، فتتناثر حروفها، تتعثر بالأصداف فتبتلعها، وتغلفها بلزوجة الحبّ، لتولد أجمل لؤلؤات حبها، يجمعها الغواصون بعد قرون، فتكون أصدافًا عصيَّة على الفتح، لأنني وضعت بصماتنا عليها، فكيف لأحد بأن يكتشف أبجدية عشقنا؟

المشهد الحادي عشر

(هيا يا عاصي وتابع حكايتك وأخبرني ما الذي حصل بعد أن تآمر الثور الأكبر مع تلك الثعابين الخبيثة؟ وماذا حصل يا أخي بعد أن سقط حكم الأسد العادل؟.. تابع يا أخي هيا..؟؟) قال روح

(حاضر يا أخي الذكي.. فها أنت تحفظ الحكاية دون أن تنسى شيئًا من أحداثها...).

(نعم يا أخي لن أنساها ما حييت)... فلنكمل يا عاصي..

وبدأت بإكمال الحكاية.....

بعد ما قام به الثور الأكبرمن إسقاط حكم الأسد العادل، بدأ يخوض مع أبنائه صراعات ضدّ ضباع خرجت من عمق الصحراء بغيتها احتلال الغابة الغنية، وكان للثور الأكبر ابن شديد المكر والدهاء، وصديقٌ لتلك الثعابين، والتي حافظت على علاقة جيدة معه، بهدف إتمام ما تمَّ التخطيط له.

قام الثور الابن بجمع عدد ليس بالقليل من الحيوانات، وأقام معسكرا على حدود الغابة التي يحكمها والده لحمايتها من الهجمات المتكررة التي كانت تشنها ضباع الصحراء.. وكانت تزوره بعض الوفود من الثعابين لتطلع على نشاطاته هناك..

لكن يجب أن أحدثك أولاً يا روح عن تلك الضباع وقصتها.. لقد قامت الثعابين بتربيتها في حظائر خاصة، ومارست عليها كافة أنواع

التجارب لتكون أكثر طواعية واستجابة لكل ما ستتلقّاه من أوامر من الثعابين فيما بعد، وسقتها أفكاراً فاسدة أرادت منها خلالها التفريق بين الحيوانات المتعايشة مع بعضها البعض منذ القدم.. وما أن أصبحت تلك الضباع جاهزة للقيام بكل ما تؤمر به من قبل الثعابين، حتى قاموا بإطلاقها لمهاجمة الغابة وإنهاء حكم الثور الأكبر.

أتعلم لِمَ أرادوا التخلص منه يا روح؟

(قل يا عاصي لِمَ أرادت تلك الثعابين أن تتخلص من الثور الأكبر).

(الإجابة بسيطة يا روح..)

نعم فهمت ما ترمي إليه يا عاصي، بعد أن أزالوا حكم الأسد العادل عن تلك الغابات تحقق لهم ما أرادوا، لكن أصبح الثور عائقًا في طريقهم بأن تكون تلك الغابات ملكاً لهم، فقاموا بإسقاطه وطرده منها..

نعم هذا ما قصدته يا روح..

المشهد الثاني عشر

التقيت مساء تلك الليلة بالرجل الحكمة في مكاننا المعهود، حيث نجلس مطلين على ذلك الوادي الذي يحتضن تلك البيوت المنبوذة.. فذلك المنظر مصدر إلهام لنا للتفكر في مسائل كثيرة، ومشاكل يغصّ بها مجتمعنا.. كان نقاشنا هذه الليلة يدور حول أطفال المياتم وتصنيفاتهم، ما بين حامل للنسب وما بين مجرد من أي نسب ويحمل اسم (مجهول النسب) وعلى أساسه محروم فيما بعد من كافة الحقوق..

طلب مني قبل أن يتركني، أن أقوم بكتابة مقال حول القسم الثاني وهو مجهول النسب، وأن أعمل على نشره على موقعنا الذي قمت بعمله بمساعدة العديد من الأصدقاء.. فكتبته بهذه الصيغة المبسطة علّه يصل إلى أكبر عدد من الأشخاص من أصحاب القرار، على أمل أن يأتي يوم تتغير به تلك القوانين الظالمة لهم.... فكتبت الآتي..

(هناك حيث يلتهم الظلام النور في زمن قصير، يولد أطفال الذنوب كما يُطلِقون عليهم، بالرغم من براءتهم من تلك الذنوب الملتصقة بهم..

الظلام يستر على فاعل الخطيئة هنا، لكنّ صمتَه يفضحها هناك بصراخ نتيجة الخطيئة، فقد تُلقى النتيجة على طرف رصيف، أو أمام بيت من بيوت الله.. مسكين ذلك الطفل الذي يولد كنتيجة لذنب ارتكبه أحدهم.. وما هي إلّا معادلة تمازجتْ عناصرها بسرعة كبيرة نتيجة لتجربة لم تخضع للأمانة العلمية، فأنتجتْ مركبًا مشاعره مشوّهة، تجربة لم يكترثْ من قام بها لنتيجتها بل ألقى بها للآخرين يتحمّلون مسؤوليتها..

فلماذا سيكون مصير هذا المركب الناتج؟؟

إنَّ مصيره مأساوي في مجتمع كمجتمعاتنا، إنّه السجن في قبو مظلم لتلك العادات المجتمعية الظالمة، والتي لن تتقبله كإنسان طبيعي، وكأنما مختوم على جبينه كلمة "لقيط"...

فلماذا لا نرتقي بأفكارنا؟ متى سنتعلم بأن هذا الطفل إنما هو فرد ينتمي إلى هذا المجتمع؟ كما أنه ينتمي إلى هذه المدينة التي ولد فيها..؟

أو ليست المدينة من سمحتْ بحدوث تلك الخطيئة في زاوية معتمة من زواياها الكثيرة؟ فلماذا لا تتنفضُ وتدافع عن أبنائها وتضمهم إلى أبناء النور؟.. فهل تتخلى كلّ المدن عن أبنائها وتقتلهم بحجة العادات والتقاليد كما تفعل مدينتنا؟..

لماذا لا نستبدل كلمة ملجأ أو ميتم بكلمة أمّ؟ لماذا لا نستبدل كلمة مربيات قاسيات بأمهات حنونات؟؟.. ألا يكفيهم فقدهم لدفء العائلة؟

أظنّ بأنه كي يتحقق هذا المطلب، لا بدّ للمجتمع بأن يتخلص من أفكاره الضبابية التي تمكّنت منه بسبب تلك العادات الموروثة، والتي أصبحت تشكل جزءًا كبيرًا من حياة الأفراد..

وهناك حقيقة لا بدّ من ذكرها ألا وهي، أنَّ هذا المكان المسمى ميتم، يصنع في اليوم الواحد أطنانًا من الحزن والألم، بحيث لو صُدّرت لجميع أنحاء العالم، لكانت كافية بل وفاضت عن حاجتهم... ما عليكم سوى لبس طاقية الإخفاء، والدخول إلى إحدى هذه الدور لتشاهدوا ما يحصل فيها بعيدًا عن الإعلام الكاذب، والكاميرات المزيفة، والتمثيليات المجرمة.. ادخلوا وتابعوا لعلكم تغرقون بدمعة يتيم... فواحدة منها كفيلة بإغراق العالم حزنًا).....

المشهد الثالث عشر

ما عرفتُ سوى دروب مدينتنا، وما أوجعتْني إلا تلك الدروب التي سارتْ أقدام نصر عليها وهو يركض هنا وهناك لعله يعثر على الكنز، وأي كنز هذا الذي يحفر من أجله القمامة متأملاً العثور عليه، فتارة يبحلق بخريطة الكنز التي فردها أمامه، وتارة يعود للبرميل ليقوم بقياسات رياضية ليتأكد من عمق الكنز.. ولكن يا للخذلان عندما تنتزع الريح الخريطة بيديها هاربة بها إلى الأعلى، ثم تعيدها إلى الأسفل، فيقفزُ للإمساك بها مرة، وتتقرح ركبتاه من الحبو مرات كثيرة، ليلتقطها عندما تصبح كالكرة تتدحرج على الأرض، وعندما يعجز يلعنها مرات عديدة.. فهل سُلِبت الرحمةُ منكم يا أصحاب الكروش ولم يتبقَّ منها قطرة واحدة؟..

تسمعون أنين البطون الجائعة، وكأنما هي مقطوعة عشقتم سماعها وأدمنتم عليها!!!

فهل لنا بأن نفسخ العقد مع السكوت والصمت..

المشهد الرابع عشر

سلمى ترتجف كعصفورة تحت الغطاء..

قال الطبيب وهو يهز برأسه.. إنّها الحمى.. وتابع.. هذه الليلة ستحدّد إن كانت ستعيش أو أنها ستغادر!! إنها مصابة بنوع من الحمى والتي أظن بأنها ناتجة عن اضطرابات داخل جسدها.. إنه يقاوم شيئًا ويحاول التخلص منه من خلال هذه الحمى والغياب عن الوعي، وكأنما هو هروب من الواقع.. هذه الليلة حاسمة في حياتها..

غضبتُ من كلماته ومن عجزه عن السيطرة على هذه الحمى التي احتلتْ جسد سلمى، وفرّت دمعة من عيني أبتْ إلّا أنْ تتحرَّر وتغادر سجنها..

غادر الطبيب الذي كان فاشلاً في نظري، فكيف يقف عاجزا عن إنقاذ وطني سلمى.. أو ليست سلمى وطني!!

رجوت المربيات بأن أمكث عند سلمى هذه الليلة علّني أخفف عنها وطأة الحمى، ولأنهنّ لم يكنّ يومًا أمهات حقيقيات لنا وافقن على طلبي من غير أن أبذل أيّ مجهود في إقناعهن ببقائي عندها..

خرج الجميع وبقيت أنا، رجوتُ الحمى وتوسلتُ إليها وقبلتُ قدميها لكي تترك لي هذا الشيء الجميل في حياتي.. جلستُ أتأملها وأغيّر كمادات الماء البارد كلّما تشبعتْ بالحرارة..

لا إنها لن تموت، قلتها في صوت منخفض، فأنا لم أشتم أيّ رائحة للموت، أنا من يتقن شمها جيدا، وأكاد أعرفها من بين مئات الروائح،

فللموت رائحة لا يعرفها إلا من أدمن عليه، أما غرفة سلمى فرائحة الحياة تعبق بها، تلك الرائحة النقية التي لا تخالطها رائحة أخرى..

تحدثت إليها تلك الليلة، وبحتُ لها بما لم أستطع البوح لها به حقيقة.. بحت لها بأشياء كثيرة، فهل هي نذالة مني وأنا أستغلُّ ضعفها وغيابها عن الوعي؟..

لا يهم، فسوف أبوح لك يا حبيبتي بمشاعري ولن أهتم حتى لو وشتْ لك محتويات غرفتك ببوحي هذا.. لا بدّ بأن تسمحي لمشاعري بأن تُريَك هذا الكم الهائل من الحرارة المتولدة، نتيجة تحركها بسرعة وارتطامها بمشاعرك.. مع علمي بأنَّ مشاعري كذرات ملح، لا ولن تستطيع الذوبان داخل مشاعرك المتجمدة نحوي.. أرجوك يا سلمى انصهري واسمحي لها بالذوبان لتعلمي مدى حبي لك.. دعينا نتحد كذرتي أكسجين وحيدتين بتفاعل عشق، لينتج جزيء الحبّ، هذا الإكسير الذي يتمناه جميع العشاق بكميات تتعدى مدى استيعاب قلوبهم له.. دعينا نتنفس بعضنا، دعينا نمتلئ ببعضنا حدَّ التخمة.. هيا واسمحي لي بالدخول مع أنفاسك لأستقر بقلبك، ذاك السجن الوحيد الذي يعني لي الحرية، ذلك السجن الذي أعشق، فكم أتمنى أن يُحكم عليّ فيه بالسجن المؤبد فأدخله ولا أخرج منه أبدا..

يا لكِ من قاسية يا حبيبتي، فهل يسمى الحبّ حبًّا إلا إذا تطارحتْ المشاعر على شطآن الغرام، وقضتْ وطرا من بعضها وتمازجت وزرعت أجمل بذرة في رحم الحبّ؟..

مررت أصابعي بين خصلات شعرها الذي تهدل كأحصنة أصيلة تصهل لمعركة التحرير..

نعم فسلمى بالنسبة لي وطن بأكمله، والوطن الآن يئن، ويستنجد من يحرره من صهير الماغما الذي يقتحم جدرانه المتعبة..

سلمى وطن وهي أيضا أم ومدينة معذبة... وهذا الوطن وهذه المدينة لا بدّ لهما من النجاة.. آه من تلك الحمى التي خاتلتْ جسدك يا حبيبتي ودخلته رغمًا عنه، فهل باتت الحمى تعشق جسدك أيضا بعد أن تذوقت حلاوة طعمه؟ إذن هيا وأخبريني أيتها الحمى، ما طعم جسد حبيبتي؟ أهو بطعم فاكهة خرافية لم تكتشف بعد؟ أم أنه بطعم عسل تصنعه نحلات من مجرة أخرى ولم يتذوقه إنسان.. هيا وقولي ولا تحتالي بالإجابة عليّ، فإنّي أكاد أجزم بأن لا طعم يماثل حلاوة طعم جسد سلمى...

هل أقبّل شفتيك كما فعل الأمير عندما قبل الأميرة قبلة حبّ صادق لتستيقظ؟.. لا تخافي يا سلمى فقبلتي هدفها أسمى من الشهوة التي تتقد في جسد العاشق ولا تطفئها إلا تلك القبلة، فأنا سأقبل بشفتيك أشجار وجبال مدينتنا فلا تعتبريها قبلة اشتهاء لك، فهذه لن آخذها رغما عنك، بل سأنتظر اليوم الذي تناديني شفتاك إليهما وتستسلمان أمام حصون حبي.. فلا تعاتبيني بعد ذلك أو تكرهيني...

مضت ساعات من الليل، وها هي حبات المطر تدق النافذة لتوقظني.. رفعتُ رأسي وكنت قد غفوتُ لدقائق.. تلمّستُ جبين سلمى فافترّتْ بسمة من شفتي.. آه يا حبيبتي لقد غادرتْ الحرارة وأنت لا زلت هنا ولم تغادري كما قال ذلك المأفون، ألم أقل بأنّي أشتم فقط رائحة الحياة..؟

وعندما بدأ الليل ينازع سكراته الأخيرة مع حلول الفجر، فتحتْ سلمى عينيها.. وستفعل مدينتنا يوما كما فعلت سلمى..

المشهد الخامس عشر

هل تحبّ يا روح أن تعرف كيف ولدت تلك الغابة الحزينة التي تغفو الآلام تحت ظلالها؟؟

(دعني أتمدد يا عاصي، فقد تعودت الاستماع إلى حكايتك تلك وأنا أنظر للسقف، فهو يذكرني بشاشة السينما التي يعرضون عليها الأفلام، أتذكر تلك السينما التي اصطحبنا الميتم إليها ذات يوم لحضور فيلم وثائقي يتكلم عن الأمراض التي قد يصاب بها نابشو القمامة؟ أتذكره يا عاصي؟

وكيف لا أذكر يا روح ذلك الفيلم الملعون!

فأنا يا عاصي عندما أستمع إليك وأنا أنظر للسقف، كأنما أرى الأحداث وهي تتصارع أمامي على شاشة السينما.. هيّا يا أخي فكلّي آذان صاغية..).

اسمع يا روح.. لقد ولدت الغابة الحزينة يا حبيبي كطفل أنبوب، أي ما يسمونه "بابن الحاجة" وكان لها ثلاث أخوات هن الكبرى والوسطى والصغرى...

ولدت الغابة الحزينة يا روح كطفل أنبوب في حاضنة، أي بغير رحم الأم، والرحم يا روح مكان في جسد الأم تحفظ فيه جنينها إلى أن يكبر ويحين الوقت ليخرج منه إلى هذه الدنيا..

(وهل كنت أنا داخل رحم أمي قبل أن أخرج إلى هذه الدنيا؟)

فأمسكت نفسي حتى لا تنزل دموعي التي ما أن سمعتْ بكلمة أمي حتى تهيأتْ للخروج من منابعها..

نعم يا حبيبي قد كنتَ في رحم أمي، ذلك المكان الدافئ الذي احتضننا جميعا أنا وأنت وأخانا نصرا...

انقضضتُ على روح أمازحه علّني بذلك أنسيه الموضوع حتى لا يسألني عن نصر.. فتعاركنا قليلاً ثم عدتُ إلى سرد الحكاية..

بعد أن ولدت الغابة الحزينة يا روح تولى رعايتها أبناء الثور الأكبر..

وكانت الحاجة من ولادتها لتكون درع حماية لأختها الصغرى من هجوم الضباع المتوحشة التي كانت تطمع بالحصول عليها، وضمّها إلى ممتلكاتها..

في حين كان هناك خنازير مشردة مهجنة لم يكن يُرى لها معالم، وقد خرجتْ مشوهة من آلات التهجين.. كانت تستعد بالاتفاق مع الثعابين الخبيثة وبدعم منها، لتستولي على الأخت الصغرى للغابة الحزينة مُدّعية بأنّها حقٌّ لها، فمحاولاتها للاستيلاء على الأخت الصغرى ليست جديدة، بل تعود إلى الفترة التي كانت فيها الأخت الصغرى خاضعة لحكم الأسد العادل، إلا أنها لم تتمكن من فعل ذلك حينها، لأنَّ الغابات الشاسعة التي كان يحكمها الأسد العادل كانت قوية متماسكة، بفضل حكمته وعدله وإنصافه، والمحبة التي اجتمعت عليها قلوب سكانها من سائر الحيوانات، أما وقد تفرقت وتمزقت تلك الغابات بحدودها وقلوبها، أصبحت الأخت الصغرى لقمة سائغة بالنسبة للخنازير، وكان لها ما أرادت....

والآن نم يا روح فقد تعبتُ من تلك الحكاية...

المشهد السادس عشر

بعد أنْ خرجتُ من القصر في ساعة متأخرة من الليل، كان الإحباط قد أكلَ مني خوفًا على أخي روح...

آه يا أخي متى سأتمكن من تخليصك من ذلك القصر؟.. وكم أنا خائف عليك، وأشعر الآن بأنني أقف عاجزا عن تخليصك، ولا أعرف حتى لما يحتفظ بك صاحب الكرش، وما غرضه من وراء ذلك؟...

طرحتْ أفكاري عليَّ احتمالات كثيرة كان منها إمكانية امتلاك صاحب الكرش "مونيتور" داخل دهاليز قصره، ذلك الذي قرأتُ عنه الكثير والذي تحدثتْ عنه الأساطير الإغريقية.... فهل يكون ذلك المونيتور قد سافر عبر الزمن حتى وصل إلى قصر صاحب الكرش؟ أم أنه نتاج خطيئة ارتكبها؟.. فهل من الممكن أن يكون نتاج علاقة غير شرعية بإحدى بقراته حينما ذهب ذات ليلة ليتفقد عددها، خوفًا من أنْ يكون قد سطا أحدهم على حظيرتها وسرق واحدة منها؟ لكنه عندما دخل الحظيرة ليتفقدهن، أغوته إحداهن بجمالها فواقعها الفراش حتى تقرحت ركبتاه على القش الخشن، وهو الذي لم يعتد على غير الفراش الوثير، لكن الشهوة كانت أقوى من كل شيء.. وبعد تلك الليلة كانت البقرة قد حملت نطفته التي تخلقت جنينًا، وعندما حانت ساعة الولادة، خرج ذلك المخلوق المشوه، إنه "المونيتور" الذي يحمل رأس ثور وجسد إنسان، وإن لم يخب ظنّي فقد يكون أخي روحٌ أحد القرابين التي ستقدم له، وهل يكون هذا

المخلوق المشوَّه خلف سرّ اختفاء الكثير من أبناء الفقراء؟ هل يقتات على لحومهم..؟

بينما هذه الأفكار تحفر في رأسي، والمخاوف تتسبب لي بقشعريرة تسري مع دمائي، حضر صديقي الحكمة وكان الكون وقتها قد بدأ ينقض رداء الليل، وينسج رداء النهار بخيوط الفجر البيضاء، فجلس صديقي الذي قرأ أفكاري كالعادة إلى جانبي وقال: وما أن ينتهي الكون من رداء النهار حتى يحدث العكس وقت الغروب يا عاصي، متناقضان كما باقي المتناقضات كما الظلم والعدل، متناقضان طغى أحدهما على الآخر، فالظلم طغى في زمننا على نقيضه العدل، حتى إنّ الأخير انزوى في تلك الزاوية التي تكاد تختفي، فما عدنا نرى سوى الظلم وهو يتضخم وما أن يأتي الليل الذي يختبئ كل شيء في عتمته إلا وقد كثرت أظلته التي بدأت منذ زمن تتسكع على مرأى من الجميع، حتى زادت عن الأربعة، وعما قريب قد يكسر كل قواعد الفيزياء، فقد تصل أظلته إلى المليون فيطغى وقتها على كل شيء...

ثم أردف: ما بك يا عاصي؟ وما هذا التشاؤم وهذه الأفكار السوداوية التي تعشش برأسك وما قصة "المونيتور"؟ قالها بغضب..

ثم تلاشى غضبه سريعًا، وعاد إليه الهدوء فقال:

إنَّ ما تفكر به يا عاصي ليس من ضمن خطتنا! وهذه الأفكار التي تزورك تحطم كل ما عملنا من أجله.. ألم نتفق بأن نرتقي بثقافة مجتمعنا لنتخلص من الظلم؟؟

ثم تنهد بصوت عال.. آه لو استطاع الجميع ارتداء معطف كالذي أرتديه..

هل تدري يا عاصي أن مجتمعنا لم يصل إلى مرحلة النضج، وأنه ما يزال في مرحلة الطفولة الأولى، والتي لم يبدأ فيها مرحلة الحبو بعد؟ هل تعلم بأنه سيبقى عاجزا عن الحبو حتى؟ ولن يصل إلى مرحلة المشي إلا إذا تسلح بالثقافة.. أتعلم أنّ أول ما يقوم به العدو عندما يُخضِع بلدًا ما لسيطرته، هو السطو على مكتبات هذا البلد وإحراق ما تحويه من كتب؟ ألم تقرأ عن القشتاليّين عندما استولوا على غرناطة، وعن أول عمل قاموا به؟ لقد كان تفتيش بيوت العرب، ونهْب ما بها من كتب، بعد ذلك قاموا بتكويمها، وحرقها، إلى أن طمسوا العربية هناك بشكل نهائي، أوَ لم تقرأ أيضًا عن المغول عندما اقتحموا بغداد وأغرقوا الكتب في نهر دجلة حتى أصبحت مياهه سوداء؟.. فجميع الغزاة عندما يدخلون أي بلد لاحتلالها يتبعون نفس الأسلوب، وأول شيء يقومون به هو طمس ثقافتها، ونشر الجهل، حتى يتمكنوا من حكم شعبها بالطريقة التي يريدون، وبعد ذلك تصبح الشعوب خانعة راضية، وتقدم التنازلات بشكل مستمر، عندها فقط يطغى الظلم على العدل... فالثقافة هي القادرة على أنْ تجعل من أبنائها جبالاً صامدة من المقاومة أمام تيارات الظلم، عندها فقط سيتمكنون من كسر معصمه وتفتيته إلى ذرات يسهل على الرياح ذرها وتبديدها، أما في حال بقي المجتمع جاهلاً فلا بدّ لمارد الظلم بأنْ يكبر حتى يلتهم الجميع.....

المشهد السابع عشر

ذات طابور صباحي في المدرسة، أنشد الطلاب بصوت عال وحماسي.. بلاد العرب أوطاني.. إلا أنا، فقد كانت الكلمات كلّما همّت بالخروج، توقفتْ عن مسيرها وتراجعتْ للخلف بحركة سريعة وعفوية، ودفنت نفسها في المكان الذي ولِدتْ فيه وماتت، لكزني المعلم الذي يرتدي بدلة جده العاشر، ويتمشّى بيننا بزهو معجب بنفسه، صارخًا بي..

انشد يا ولد وإلا!!

وأنا أنظر إليه كالأبله، فقد غبت وقتها عن هذا العالم...

يعيدني إلى مراسم الطابور، بصفعة على وجهي تسري حرارتها في أنحاء جسدي البارد، لكنني لا أزال غير مبال، فأنظر إليه وقد استعد فمي لفرقعة تلك الضحكة الهستيرية، فأنال منه ما أنال من تلك العصا التي يمسكها، لكنني لا أزال أيضا غير مبال!!.. ضحكتُ هذه المرة بيني وبين نفسي لئلّا أتسبب له في ذلك الصباح بجلطة دماغية، وقلت:

أما زلنا ننشد من أجل أوطاننا؟ وأين هي؟ وقد تمزقت منذ أكثر من قرن (فكل النكسات كانت قبل قرن وأكثر!!) تمزقت أوطاننا عندما غزتها تلك الخدوش التي شوهت جسدها، فتغرب كلّ عضو فيها عن الآخر، فأضحت الدماء التي تسير في أنحاء جسدها، تحتاج إلى جوازات سفر، وتأشيرات للمرور عبرها.. كلّ عضو فيها تقمّص لوناً لا يشبه لون أي شيء، بلاد العرب ما عادت أوطاني!!.. قد اختبأت واندثرت في وثيقة غربية، والحدود تزداد ويزداد عمقها، وكأن زلزالاً عميقا قد أصابها.

لقد رأيتُ جسد الأوطان ذات خريف يمشي هائمًا على وجهه، على ورقة مهملة ملقاة في القمامة، تتلاعب بها الريح، إنّه جسد حزين ومن شدة حزنه بدا لي مضحكًا، لا ينقصه إلا أنْ يُعرض كفيلم كوميدي على شاشات أولئك الغربيّين، يشاهدونه وهم يشربون نخب ضياعه، ونحن ما زلنا ننشد بلاد العرب أوطاني!!!..

فأي مسرحية هي؟؟ وعن أي بلاد وأي عروبة ما زالت أفواههم تتمتم بكل بلاهة؟

والأستاذ المسكين ما زال يلوح بالعصا لأنشد بلاد العرب أوطاني!!!!! وأنا ما زلت كالأبله أتلقى الصفعات غير مبال كما هي أوطاني..

المشهد الثامن عشر

إلى سلمى قلمي ينزف.....

سلمى أيتها الحبيبة القريبة البعيدة.. ها هي بوصلة قلبي تُعلِن تمردها على الاتجاهات وقد عكستْ إبرتها باتجاهك أنتِ ونبذتْ على الطرف الآخر الّلا أنتِ.. فحبّك قادر على تغيير بعض النظريات والحقائق، فهل أيقنتِ الآن بأنك وطن تنحرفُ نحوه قلوب الأبناء أينما كانوا؟؟

ألا زلتِ يا سلمى تشكّين بأنك تقلبين الحقائق، وتغيرين النظريات؟ هيا وعلميني هندسة الحياة، فقد نسي معلم الرياضيات أن يعلمني إياها ذات درس، وأنا أراقب رموزه ومعادلاته الرياضية التي أرهقتْ دماغه وهي تتطاير فوق رأسه، مع عجزه عن إدخالها إلى أدمغتنا المجنونة كجنون معادلاته المعقدة..

فهلّا اختصرتِ كل هذا العناء؟ هيا وعلميني كيف أبني جسور عشق بين قلبينا، لأجعل منها حدائق تشبه تلك التي ببابل.. علميني كيف أحنّط حبّنا، كفرعوني يتقن فنّ العشق والتحنيط...

أأخبرك بشيء؟؟

لقد قررتُ بأن أعقد لقاءً سريًّا داخل شراييناك.. أو لستِ مدينة؟ أو ليستْ المدن تستقبل أبناءَها وترحبُ بهم في أيّ جزء منها؟ آه لو تمنحينني فرصة اللقاء، لكنت ذبحتُ قرابيني عند بوابة قلبك.. قلبك الذي يختلف باحتوائه آلاف الحجرات، فكوني كريمة وامنحيني غرفة واحدة منها، هيّا وتوجيني ملكًا عليها..

حاولي يا حبيبتي فستجدين نفسك تفعلينها.. امنحيني فرصة اللقاء لأطفئ سيجارة أشواقي، ودعيني أسكبْ محبرتي، وأكسر أقلامي، كذلك سأمزق أوراقي وأحرقها عند قلبك الغافي هناك خارجك أنت، وفي الجهة الأقرب لليسرى مني.. امنحيني فرصة اللقاء لأزرع ياسمينات أشواقي على طول ذلك الممر المؤدي إلى قلبك لأسير، على أشواك رفضك إياي.. ألم تحرصي على زراعة تلك الأشواك في طريقي منذ زمن؟ أو لستُ من أبنائك يا حبيبتي؟ فكيف لك بأن تكوني بهذه القسوة؟ كيف استطعتِ إبعادي عنك.. أو لستِ الأمان؟؟ أو لستِ شاطئ بَحريَ الذي أسبح إليه كلّما شعرتُ بأنني أغرق.. وأنا دائم الغرق بعينيك..

أو لستِ ليلِيَ الذي أخبئ كلَّ أسراري في زواياه البعيدة.. إذن هيا وامنحيني فرصة اللقاء، أو أطلقي سراحي من هذا الحضور..

المشهد التاسع عشر

لا زلت أسرد حكايتي وروح يستمع إليّ ويحفظ كلّ ما أقول...

بعد أن ولِدتْ الغابة الحزينة شبّتْ وأصبحتْ رائعة الجمال، إلا أن حزنها صار أكبر وأعمق بعد أن انغرست شوكة تلك الخنازير المهجنة داخل حدود الأخت الصغرى لها..

وبعد أن انتهت الثعابين من تحقيق مصالحها في الغابات الشاسعة، عادت إلى أوكارها ولكنَّها ظلّت تتحكم في كلّ شيء من بعيد، وكانت قد تركتْ الأخت الصغرى للغابة الحزينة، تركتها للخنازير يستبيحونها ويبدلون معالمها كما يحلو لهم، ويستبدون بحيواناتها، حتى اضطروها للهرب والرحيل عنها نحو غابات شتى طلبًا للأمان.

المشهد العشرون

الكون اليوم على موعد مع الحداد، ففصل الصيف انتهى بخضرة أوراقه ودفء لياليه ونسائمه العليلة.. أمّا أنا فقد أقمتُ احتفالاً لموته، لأنّني كنت أعشق الخريف مقدمة الشتاء، ففي الخريف تسقط الأقنعة التي أكره، ويزداد سقوطها مع توغُّل الشتاء بجسد الكون، فيَظهرُ على حقيقته من غير تجمّل ولا ألوان، فالأشجار تتعرى، ويظهر ما بداخلها من انفعالات، من خلال حركات سيقانها وأغصانها التي تفضح أسرارها.. أما الطيور فتتخلى عن مواطنها لتبحث عن موطن بديل يؤمن لها الدفء والغذاء... فهل الوطن مواسم؟؟ أما البشر فإنهم ينكرون الشوارع ويلتزمون بيوتهم لساعات طويلة فيزداد صفاء الكون، ويظهر لي منزوعًا من كذبهم ومجاملاتهم الزائفة، حتى تملّهم جدران بيوتهم... فما أجمل الشتاء بيت الحقائق الذي لا ريب فيه...

أُعجب الرجل الحكمة بثقافتي التي تحسّنتْ كثيرًا عندما تناول دفتري الذي أدوّن عليه شذرات روحي، وأثنى كثيرا عليّ..

لقد كان الرجل الحكمة فيلسوفًا، ولم يكن من أولئك السفسطائيّين الذين يتَّجِرون بالحكمة، ويعرضون بيعها كأيّ بضاعة.. فلقد سقاني تلك الفلسفة من غير أجر أو مقابل، لم يكن بذي مصلحة بل كان كلّ همّه أنْ يرقى المجتمع بثقافته ليتحرر من دياجير الظلم..

نظر ليلتها إليَّ قائلاً بعد أن أشار إلى معطفه:

(هل ترى هذا المعطف يا عاصي؟ صدقني إنَّ ارتداءَه هو الشيء الوحيد الذي سيخلص الشعوب من أنْ يكونوا صاغرين، متسولين قمامة القصور بحثًا عن كسرة خبز يخرسون بها أمعاءَهم.. هل تظن بأن أصحاب القصور ذوي الكروش الكبيرة يمتلكون في بواطنهم أية مشاعر وجدانية؟

لا يا عاصي فصوت الوجدان مات بداخلهم..

لذلك دعنا نرتقِ بالحاضر ونجعل الماضي عبرة لنا، بحيث لا ندع المجال "للنوستالجيا" بأنْ تسيطر علينا.. فالماضي ذهب، ولنعمل على تجديد أفكارنا وحياتنا، ولنحاول أن نستيقظ من تلك الغيبوبة، أما كفانا نومًا والأمم من حولنا ترتقي؟ لقد أصبحوا في القمة، ونحن ما زلنا نرتع في القاع متباكين على ماض اندثر، ولن يعود.. لِمَ لا نعتبر مما نشاهده من حولنا؟ أتعلم بأن الطبيعة هي من أعظم الحكماء الذين قد يعطوننا من الحكمة ولا يضنون بها علينا!! انظر مثلاً إلى فصل الخريف، ذلك الفصل الذي سمعتك تتغنى به قبل قليل وتكتب عنه الشيء الجميل.. إنّه الفصل الذي تحدث به الحروب بين برودة الجوّ وأوراق الأشجار التي دائما تخسر أمامه، فتسقط صرعى بعد أن تتخلى عنها أمهاتها طواعية منها.. انظر إلى تلك الأوراق المتراكمة، ودقّق بالرياح كيف تأتي مسرعة، وبكلّ قوتها لتحمل أولئك القتلى وتفرقهم كل في مكان، لئلا تتراكم الجثث فوق بعضها البعض حتى لا تتعفن... فهل اتّعظ الإنسان وفعل بجثث بني جنسه عندما تتراكم هنا وهناك في الحروب الدائرة رحاها في أوطاننا كما تفعل الرياح؟؟ لا لم يفعل وتعفنت الجثث على جوانب الأرصفة بعد أنْ شبعت منها هوام الأرض وسباعها..

وانظر أيضًا إلى ذلك البياض العمودي الذي بدأ ينتشر في الأفق مقتحمًا رداء الليل، وانتظرْ لحظات لترى ذلك البياض الأفقي كيف يأتي مسرعًا

حاملاً حقائب ضيائه معترضًا على ذاك العمودي الذي جاء منتحلاً شخصيته لإعلان دخول الفجر، وبعد جدال، يتخاصم الاثنان عند القاضي كلّ ليلة، فيعرضُ كلّ منهما قضيته أمامه، وبعد تقديم الأدلة من كلا الطرفين، يعلن القاضي.. بأنَّ الفجر الذي بياضه أفقي هو الصادق، وبه يدخل وقت الفجر، أما ذاك العمودي فإنّه كاذب.. وهذه جلسة يخضع لها الاثنان عند كل نهاية ليل لكن الانتصار لمن في النهاية يا بني؟)

فأجيبه.. (للصادق..)

الصادق لا يمل من عرض قضيته كلّ يوم أمام القاضي، فالمهم أنْ ينتصر في النهاية.. ويكمل... (رأيت؟ وهكذا نحن البشر ستنتصر قضيتنا لأنّنا الأصدق وبمعطف العلم هذا يزداد وعينا وتنتصر إرادتنا...).

المشهد الحادي والعشرون

إليك يا سلمى...

انسحبتْ مشاعرك ذات ليلة من أمام عيني، واستسلمت جيوشها التي طالما أطلقتْ عنانها على أعتاب قلبي، وكانت دائمة الانتصار.. اليوم انسحبتْ جميعها من غير أنْ تترك حتى قتيلاً أو أسيرًا واحدًا.. كنت دائما أعتبر نفسي أنا المنتصر حتى لو كنتُ المهزوم حقيقة.. لأنَّني دائم الشعور بأنك أنا وأنني أنت.. اليوم أنت بلا مشاعر يا سلمى، فأنت كأيّ جماد لا يشعر بوخزات تأنيب الضمير..

قد كنتِ وطني الذي ألتجئ إليه كلَّما زارني ضباب الألم، فينقشع أمام حنانك، أمّا اليوم فأزقة قلبي يعمُّها الضباب، ولا شمس تشرق لتشتت جموعها المتراصة، فكأنما قد خرجتْ في ثورة.. كنتُ أرى الشمس في وجهك إذا ابتسمتِ لي، أما اليوم فشمسك تحرقني.. تصهرني وتأخذني إلى المجهول، فأين أنت مني وأين أنا منك؟ أين كلانا من كلينا؟ فلم تعودي أنا ولم أعد أنت.. فكلانا احترق أمام الجبن...

فهل بعض النساء هنّ من يصنعن الحروب؟.. أو لم تتسببْ البسوس بحرب بسبب ناقة جرباء لها، يُقال بأنها دامت أربعين سنة، مزقتْ أبناء العمومة وقتلت أكثرهم!! بمَ تختلفين عنها يا سلمى؟؟ إنك تعيدين فعلة البسوس، فقد تسببتِ لي بحرب مع مشاعرك لمدة أربعين قرنًا.. سأكون الزير وسأقتلك كلّما مررتِ من أمامي ولن أكون بحاجة إلى فرس وسيف

في معركتي معك، فمشاعري المجروحة هي الفرس، ونظراتي ستكون هي السيف الذي سيقتلك آلاف المرات... وفجأة انتبهتُ لنفسي ولطمتها عدة لطمات، فكيف تجرأتْ على حبيبتي؟

آه منك يا سلمى، لا تصدقي ما قالته لك نفسي واغفري لها فما قالت الذي قالته إلا من فرط حبّها لك، فلا تظني بأنني أستطيع أن أصمد أمام سحر عينيك؟ وتأكدي بأن المحبّ لا يستطيع أن يكره أو يؤذي من يحب؟ إذا فسامحي نفسي يا حبيبتي فلقد شربتْ من خمر الألم حتى سكرتْ، فنسيتْ نفسي من تكونين بالنسبة لي، ولم تستطع أنْ تلجم هذيانها عنك جيدا، لأن الحرب إنما ستكون نفسي ضدّ نفسي، إذا سوّلتْ لها نفسي بأن تقترب من نفسي التي هي أنت.. لا تخافي يا سلمى فنظراتي ستكون الحامية لك، لأنك ستبقين وطني الذي أموت عشقًا فيه وأنتمي إليه، حتى لو أخرجني خارج حدوده فلا تجزعي من بعض تمتماتي الحمقاء...

المشهد الثاني والعشرون

ها هو روح يكبر كنبتة جميلة، وها هي الأيام تمرُّ سراعًا، كأنما هي على موعد مع شيء مجهول، ولا نعلم ما تخبئ لنا في طياتها..

روح يتمدد على ظهره يضع رجله اليسرى فوق اليمنى، ويهزها ينتظر مني إكمال الحكاية التي لا يعرفها إلا الرجال...

واصلت أحداث الحكاية وهو يستمع إليّ بكل سعادة مع أنه لم يكن بها فصل واحد يجلب السعادة، فمنذ ولادة الغابة الحزينة والبؤس والشقاء مخيم عليها، يقتلها آلاف المرات حتى أحنى ظهرها وهي التي لا تزال صغيرة..

اقتربتُ كثيرًا من روح المستلقي على سريره وقلت:

حين أنجبت الغابة الحزينة أبناءَها كانت فتية تجهل كيف تؤمن لهم احتياجاتهم كمواليد يحتاجون إلى من يتعهدهم.. ذلك أنها عندما شبت وازداد جمالها افتتن بها الثيران، وتزوجوها واحدًا تلو الآخر، فكانت تحبل يوما وتلد في اليوم التالي..

لم يكن الثيران يتقنون التدبير، فبات أبناء الغابة الحزينة ينتشرون في أنحائها حفاة عراة، يبحثون عن كسرة خبز تقيهم الموت، هنا فقط تقف الغابة الحزينة عاجزة، تبكي أبناءَها المتشردين في الطرقات، وتبتلع جثة من يموت منهم، إنّها يا روح غابة ثكلى، وُلِدت لكي تبقى تعاني التنكيل، وفي كلّ مرة ستنازع أنفاسها الأخيرة، ما دامت تغتصب في كلّ يوم من قبل

بعض أبنائها، فيمتصون جمالها وشبابها، ويلقون في رحمها نطفًا تُنتِج ذرية عاقة، عندها من الجرأة أن تزني بمحارمها.. فهل كلّ الغابات تتعرض للاغتصاب كغابة الحزن؟؟

بكى روح تلك الليلة عن كلّ أبناء الغابة الحزينة... نام ودموع القهر تعانق وجنتيه.....

المشهد الثالث والعشرون

إلى سلمى....

ما أجمل تلك الزهرة التي تلقيتها منك في الذي يقولون بأنني قد وُلِدت فيه، ويسمونه يوم ميلاد.. فمن منّا ما زال يتذكر تاريخ ميلاده؟ قد نسيته لولا تلك الزهرة التي قالتْ ما لم تقوليه لي يومًا.. وقتها شممتُ من عطورك ما عجزتُ عن الحصول عليه في الواقع.. لأوّل مرة أحبُّ يوم ميلادي، ولأول مرّه أجده، ولأول مرّة أتمنى بأنْ يأتي العام المقبل سريعًا طمعًا في زهرة أخرى قُطِفت من مشاعرك.. تلك المشاعر التي لا تريد أن تتفتحَ براعمها لي.. تلك الزهرة اختزلتْ أشياء كثيرة تمنيتها منك يا حبيبتي.. قد اختزلتْ مشاعر عجزتِ عن إشهار حسامها أمام قلبي، ولو لمرة واحدة.. سلمى يا وطناً احتضنَ ترابه زهور المحبة.. ألن تقوليها لي؟ ألن تصفعي مشاعري يومًا عندما تفاجئينني بكلمة انتظرتها منك طويلا؟ ألن تقولي أحبّك؟؟؟؟

قد لامستْ زهرتك تلك شغاف قلبي، فطاب من علله.. أو لستِ الدواء له يا مدينة عشقتُها، ويا وطناً طالما تلهفتُ إلى قربه ليحتويني..

يا من دخلتِ قلبي من غير استئذان.. وهل يحتاج حبُّ الأوطان إلى استئذان؟؟

قد جُدتِ على قلبي بعطاء انتظرتُه طويلاً، فما أجمله من عطاء وما أجملها من هدية..

أتعلمين بأنني سأزرع زهرتك في قلبي وأسقيها من دماء حبي؟؟ لذلك هي لن تذبل ولن تموت...

فكم أودُّ لو يكون حبي لك كدائرة، ادخلها ولا أتوقف فيها عن الدوران، وكم أكره أنْ يكون حبي لك كمربع أو مثلث، لأنني لا أريد أن أتوقف فيه عند حافة، أو زاوية تعيق دورانه.. فلماذا تحيطين مشاعرك بحواف وزوايا؟؟

مشاعرك يا حبيبتي مضطربة كبحر ستحلُّ به عاصفة عمّا قريب، وأمواجه تتخبط فلا تعرف الاتجاهات.. فأحيانًا أرى سفينتي راسية على شاطئ عينيك، ومرساتها ثقيلة وثابتة وأحياناً أخرى تدفعها أمواج رفضك وسط التيار فتغرقها، فهلا فسّرتِ لي ذلك يا سلمى؟

أتعلمين بأنني مسكون بالألم، فحتى حبي لك أحيانًا لا يزيد نفسي إلا ألما.. فهل كل الذين يسكنهم الحبّ يسكنهم الألم معه ليُحوّل حبهم إلى مكامن للحزن، يتمّ استدعاؤُها حين الحاجة إلى إطفاء ذبالة السعادة كلّما ازدادتْ اتقاداً..

أتعلمين أيضًا بأنَّ ذلك المسجونَ خلفَ عظام قفصي الصدري يؤلمني كثيرًا.. إنّه يئنُّ اشتياقًا لك.. تتدافع نبضاته كتدافع قطرات المطر نحو نافذة ذلك المصاب بمرض العشق.. نعم إنَّني مسجونٌ بك يا سلمى، فسجنك أجمل حرية، سجنك هو عشق وطن.. فهل يتمنّى عاشق الأوطان التحرر من قضبان من يعشق؟؟

المشهد الرابع والعشرون

مدينتنا كشجرة الأمنيات، تلك التي يعلقون عليها شرائط بألوان مختلفة، ويكتبون أسماءَهم عليها، علَّه يُكتبُ لأمنياتهم أنْ تتحقق يوما!! هي ملجأ المتمنين.. هي أمنيات لأناس بسطاء عُلّقتْ شرائطهم على أغصانها منذ ولادتها وكبرت الشجرة، وظلّت الأمنيات هي الأمنيات، تقتصرُ على الاستيقاظ على رائحة لرغيف خبز قد يجدونه دُسَّ أسفل وسائدهم في الصباح.. فالشرائط تَعبقُ بها رائحة القمح والخبز، لكنّه قمح مدينتنا، لا ذلك المستورد الذي يحمل رائحة العار.. لكن الأسماء محاها الزمن، والشرائط مزقتها رياح الذلّ.. وما أنت يا شجرة الأمنيات إلا مخلوق يُولد ويشبُّ ويهرم حينما يغزو التسوّس جذوره فيموت ببطْء، وتنتهي الأمنيات وتتساقط الشرائط أوراقًا مصفرة تتآكل كما يتآكل الحديد الصدئ.. كمدينتنا الحزينة تمامًا...

مدينتنا أيتها القطرات الغافية ليلاً على وريقات الأشجار.. لديك في الصباح خياران إمّا الصعود إلى السماء فتحلّين ضيفة مؤقتة في إحدى الغيمات، أو الانزلاق إلى الأسفل والاندماج مع ذرات التراب، إذن فهما خياران لا ثالث لهما، فإما الارتفاع أو السقوط!! لكنك مع الأسف لا تملكين الاختيار دائما، فأنت قلَّما تختارين وكثيرًا ما تُجبرين، هي الفلسفة الساقطة الإجبارية التي لا بدّ منها...

المشهد الخامس والعشرون

(هيا يا عاصي لنستمع إلى باقي الحكاية رغم أنني مغتاظ جدا من تلك الثيران...) قال روح

(آه يا حبيبي كم كبرتَ وأصبحتَ أكثر إدراكًا وسبقتَ جيلك بأشواط من المعرفة...) قلت لروح

(أعلم يا أخي بأنني قد كبرت وتفوّقت على أبناء جيلي بمعرفة ما يعرفه الرجال من حقائق..) قالها روح وهو يهزّ رجله اليسرى المسترخية على اليمنى، قالها وقد خشن صوته متقصدًا.. فضحكنا وتعانقنا، وعاد روح إلى وضعيته ينتظر مني إكمال حكاية الغابة تلك..

استمع الآن يا أخي...

(كان الثيران يا روح يخططون لتوسيع حدود غاباتهم، ويأملون بأن يتزوج واحد منهم بإحدى الأخوات الثلاث للغابة الحزينة، ولم تكن أمنيتهم بالحصول على إحداهن، بأقل من الأخرى، فقد كانوا يشتهون الحصول على الثلاث دفعة واحدة لو استطاعوا، لكن الثعابين لم تكن ترغب بإعطائهم أكثر مما أخذوا..

بداية حصل الأخ الأصغر منهم على الأخت الكبرى للغابة الحزينة والتي كانت ذات حضارة عريقة، أمّا الأخت الوسطى فقد كانت ثعابين الكوبرا تسيطر عليها، والأخت الصغرى، وكما تعلم يا روح، كانت من نصيب الخنازير المهجنة.. ومن هنا فشل الثيران بالحصول على أيّ منهما،

فاشتعلتْ الغيرة في قلوبهم على أخيهم الأصغر، كلّ هذا ولم يكونوا يعلمون بأنّ الثعابين كانت قد بيَّتت النيّة على إخراجهم من الغابة الحزينة، واستبعادهم منها تمامًا..

أخذ النعاس بزيارات مبكرة لروح، فوضعتُ كفّي على جفنيه وأغمضتهما، وقلت له (نم يا حبيبي ونكمل في المرة القادمة)... أدار مؤخرته الصغيرة نحوي وراح يغطّ في نوم عميق....

المشهد السادس والعشرون

في تلك الليلة أوجعني الحنين لمسقط رأسي، لبيتنا الذي كان ملجأ لنا من عواصف الحياة.. فأين أنتِ يا أمي؟ وأين أنتَ يا أبي؟ وأين طوتك الأيام عني يا نصر؟ يا صديقي ومحلَّ أسراري.. نصر الذي سار ضدّ العاصفة، لا أستطيع نسيان ما حدث فذاكرتي تحتفظ بتفاصيل تلك المأساة وتعمل على تخزينها، وتحافظ على إبعاد كلّ ما قد يتسبّب في هروبها.. فكيف لي أنْ أهرب من سجن ذاكرتي وقد فشلتْ جميع مخططاتي؟ فجدرانها زلقة، كلّما حاولتُ تسلقها هويت لقاعها.. فهل سأبقى سجينًا لها؟ بل إلى أين أهرب والراحلون كقطرات المطر، تطرق أبواب ونوافذ قلوبنا ولا يتوقف طرقُها لأنّه لا فصل لقلوبنا إلا الشتاء..

وبينما أفكاري تضجّ بذكريات الماضي الحزينة، إذْ بصديقي الحكمة يقرأ أفكاري ويوصيني بأنْ أحاول تجاوز ألم الذكريات، بالقراءة وزيادة المعرفة، فاستغربت كيف علم هذا الرجل بما كان يدور في خلدي؟

وعندما سألته، كيف له أنْ يكشف أفكاري بشكل مستمر؟ أجابني..

(بأنَّ بعض الملامح والتفاصيل الصغيرة أحيانًا قد تعطينا تصورًا واضحاً عن حالة بعض الأشياء، وحقيقة ما هي عليه.. فمثلاً الثقب في معطف أحدهم يعطينا فكرة واحدة، يشرحها لنا بنفسه (الثقب) عندما يقفُ ماثلاً أمامنا كمحاضر مبدع، قادر على إيصال فكرته التي يبغي إيصالها لنا.. والفكرة هي أنَّ هذا الشخص لا يملك إلا هذا المعطف، وإلا

لما أقدم على ارتدائه، وهو يعلم أنه مثقوب.... وهكذا أنا يا عاصي فلقد استنتجتُ ما في دواخلك من خلال تلك النظرة الثملى، والتي لا تعني لي سوى الحنين الممزوج بالحزن على ماض بعيد قريب...).

ما أجمل فلسفتك يا صديقي، فليت الجميع يستطيع إتقانها، وليتني أستطيع يومًا أنْ أكون مثلك، علّني أصبح روائيًّا.. عندها سأبتكر بطلاً لروايتي.. بطلاً استثنائيًّا لا يموت كبعض أولئك الأبطال في أفلام الأكشن.. سوف أجسده كشخصية أسطورية تكون مهمته في طرقات روايتي، اقتناص أصحاب الكروش بقناصات العدل وقهر الظلم، علّني أُرجع حقوق الفقراء ولو كان هذا في الخيال وبين سطور.. عندها فقط سأشعر بأنّني قادر على التقاط النجوم التي حلمتُ بأنْ ألتقطها ذات ليلة، لأزيّن بها رقعة سمائي الخاصة وكانت قد بدتْ لي وقتها نجوم بعيدة عصيّة، إلا عن اشتهائي لها من بعيد..

بعد ليلة طويلة قضيناها معا تمنّى صديقي في نهايتها أن تتعلم الشعوب، بناء جسور من الثقافة والسير عليها للوصول إلى رقعة الأمان.. تلك الجسور التي تجعلنا أكثر وعيًا لما نريد تحقيقه والوصول إليه..

ليت المجتمع يصل إلى تلك القناعة كما توصلتُ إليها أنَا...

المشهد السابع والعشرون

إلى سلمى.....

هل تودّين يا سلمى أنْ أختزل مشاعري كصبارة، اختَزَلتْ أوراقَها أشواكًا لأنَّ صحراءها قد ضنَّت عليها بالماء؟ هل تودّين أنْ تكوني صحراء تضنين عليَّ بماء حبّك الذي يمدني بالحياة؟ منذ متى يا سلمى والمدن تضنُّ على أبنائها بماء الحياة...

إنَّني يا حبيبتي لا أتمنّى وابلاً من الحبّ، إنَّما يكفيني القليل بعدد قطرات الندى الغافية على زهر النرجس الحزين.. بل إنَّ قطرة واحدة من حبّك قد تسقي أرض قلبي القاحلة.. ولا تظنّي بأنّ قلبي قد يحتمل الألم كصخرة، بل اعلمي بأنّه كقطعة صلصال هشّة تكسرها ذرّة إهمال يحملها زفيرك القادم من صدرك عندما يصطدم بها فيحطّمها..

هل تعلمين بأنّ مشاعري نحوك غدتْ جامحة وصعبة الترويض؟ لقد أصبحتْ تهرب من غير استئذان مني، وتذهب كلّ مساء لتقتحم حصونك فتعود إليّ في الصباح مضرجة بدماء اليأس، بل إنها تأتيني مشوهة كجندي فقد أطرافه في نهاية معركته مع العدو.. لكنّك يا سلمى حبيبة، ولستِ بعدو، فكيف لك بأن تغلقي حصونك في وجهها وتسمحي لها بالعودة مشوّهة؟ منذ متى أدمنتِ القسوة؟ هل تظنين بأنَّ تركيب الأطراف الصناعية سيعود بالنفع عليها؟ هل تظنين بأنَّها ستعود كما السابق عندما كانتْ تسيرُ بكلّ شموخ، تنتظرُ تتوجيها كملك في مملكتك

التي كانت بدايتها بها؟ لا أظن.. فهي الآن ستسير منكسرة كمن أصابه العرج، أو أنّك ستجدينها طريحة الفراش كسيحة، تنتظر ذلك المسمى بالموت...

أتعلمين أيضًا بأنني كالأعمى يدور في تيهك، ولا شيء إلا موجات رفضك تقتحم ليلي وتدفعني للخلف! أنا ذلك الأعمى الذي يتحسّس الطريق إليك، ويستطيع التعرف عليك من بين المئات.. من رائحة أنفاسك واضطرابها عندما تهدر كموجات غاضبة من بحرها..

ألن تدركي بأنّني لو فقدتُ جميع حواسي وإحساسي بالأشياء من حولي، لن أفقد شعوري واتباعي لخطواتك أينما ذهبتِ وأينما كنتِ!! لِمَ يا سلمى تتجاهلين كلّ هذا؟

لِمَ يا وطني تتجاهلُ كل هذا الكم من الحب؟ فهل تعقُّ الأوطان وتتنكر لأبنائها؟

المشهد الثامن والعشرون

(هل تذكر يا روح الأخ الأصغر، والذي حصل على الأخت الكبرى لتلك الغابة الحزينة؟) قلت لروح

(نعم يا أخي، هيا أكمل ماذا حصل بعد ذلك؟) قال روح

وعدتُ إلى سرد تلك المأساة...

(عندما أكلتْ الغيرة قلوب الثيران من أخيهم الأصغر، تردّتْ العلاقات بينهم وبين تلك الثعابين التي كانت قد هيأت الأرضية للأخ الأصغر وأوصلته للأخت الكبرى، فأصبحت العلاقة قائمةً على الشكّ من الطرفين وعدم الثقة.. وبَقيَتْ كذلك إلى أن تعرّضَ الأخ الأصغر للإصابة بالمرض، مما فتح الطريق أمام الثيران للتواصل مرة أخرى مع الثعابين، في محاولة منهم ليحظوا بالأخت الكبرى، لكن مرة أخرى باءتْ جميع محاولاتهم بالفشل، بل حصلَ ما هو أنكى من ذلك، إذ خسروا جزءًا من الغابة الحزينة لصالح الضباع الصحراوية.. وبعد أنْ ضاعتْ أحلامهم وتاهتْ في ممرات وسراديب الإذعان والذل أصبح كلّ همّهم أن يحافظوا على هذه الرقعة الصغيرة...

ظلّت هجمات الضباع مستمرة على حدود الغابة الحزينة التي أصبح جسدها يغص بالجراح والألم لإشغال أبناء الثور الأكبر عن بقية الغابات التي يطمعون بالاستيلاء عليها بسهولة، وفي نهاية المطاف تمّ طرد الثور الأكبر من تلك الغابات، بعد أن استولت عليها تلك الضباع!..

وبعد أن كان الثور الأكبر يحصل على العطاء السخي من الأسد العادل، أصبح بعد إسقاطه وطرده من عرينه لا يحصل إلا على الفتات من تلك الثعابين..

وواصلتُ...

وقف الثيران يتفرجون على حكم أبيهم وهو ينهار في تلك الغابات، وأخذوا يستعطفون الثعابين للمساعدة، لكنها رفضت ذلك لأن مصالحهم مع الثور الأكبر كانت قد انتهت...

فخرج الثور الأكبر من تلك البقعة وهو يجرُّ خلفه أذيال الهزيمة!!

أتعلم يا روح، لقد تعبتْ نفسي من هذه الحكاية المخزية....

المشهد التاسع والعشرون

ما أقسى ذلك الفجر الذي اصطدمتْ به عيناي بجسد المدينة الحزينة،، وهي تخلعُ ملابسها عند ضفة ذلك النهر، تغتسلُ من جراحها التي تكاثرتْ على مدى قرابة القرن، وأسنانها تصطكُ من البرد.. وقتها رأيت جيوشًا من النوستالجيا تهاجمُ عقلها.. فبكت بصوت عالٍ طالبةً أنْ تعود جنينًا في رحمه، حيث لا برد ولا جراح!!

كلّ شبر من جسدها مشوّه..

فماذا فعلوا بك يا أماه؟ وأي جريمة اقترفوها بحقّك؟ أمّا كفاهم اغتصابك كلّ يوم؟ أمّا كفاهم أنّهم سرقوا عطر جسدك المعتق برائحة السوسن الحزين؟

قد أبدعتَ يا باتريك زوسكيند عندما اخترعتَ تلك الشخصية القذرة (غرينوي) صانع أغرب عطر جنوني على وجه الأرض، فكأنكم تكتبون على الورق أيها الغربيون، ويطبقُ حكامكم ما كتبتموه على أرض أوطاننا!! فها هي أحداث روايتك تُطبّق هنا في عالمنا نحن، وبعيدة كلّ البعد عن عالمكم أنتم!

ألم تُقتَلْ مدننا العذراء ويُسرَق عطرهن؟ كما فعل غرينوي مع الفتيات العذراوات؟؟ ألم يستقطر عطر أجسادهن بعد قتلهن؟؟ ألم يحصلْ هذا مع أوطاننا؟ ألم تبقَ المدينة الحزينة ليكمل بها عطره ذاك؟؟ وها هو غرينوي الحقيقي يقوم بكلّ الترتيبات المناسبة منتظرًا تلك الفرصة لقتلها وسلب عطرها!!!

فكم أنت مبدع يا باتريك!!

آه أيتها الحزينة الحبيبة كم بكيتُ عندما رأيتك تخلعين نظارتك السوداء تريدين غسل وجهك، تلك النظارة التي لم أركِ يومًا بدونها.. فكم آلمتني تلك الدمعة التي انزلقتْ من عينك الوحيدة، وكم كانت صدمتي شديدة، عندما وجدتُك قد فقدتِ عينك الأخرى في ذلك المزاد اللعين الذي لم أعُد أذكر في أيّ تاريخ كان.. هي دمعة واحدة انزلقتْ فاهتزّ لها كياني دمعة واحدة كانتْ قادرة على حفر أخدود تجاوز رقبتك إلى أسفل قدميك، لكنّها قبل أن تلامسَ التراب كان قد نبتَ لها جناحان، فحلقتْ للأعلى كعصفور كان في سجنه ثم تحرّر.. سافرتْ خلف الغيوم.. خلف المجهول وأنت يا مدينة الحزن والجراح لا زلتِ هنا...

هل تشعرين الآن بالبرد بعدما غسلتِ جراحك يا حبيبتي؟ هل تكفيك مشاعري الجارفة نحوك لتؤّمن لك الدفء؟ هل ستكفيكِ أوراق ذاكرتي لو أحرقتُها تحت قدميك؟ فالبرودة تبدأ عادة من القدمين.. هل أخبرك بشيء! سأقومُ بحرق ذاكرتي كلّها وما تحتويها من ألم وأحزان.. وأظنُّ بأنها قد تؤمن لك الدفء الذي يضمنُ سريان الدماء في عروقك المتجمدة..

لا تخافي يا أمّاه فغدًا ينتهي البرد، ويعمُّ الدفء جسدك المرهق، وتعودين للحياة من جديد، فدماء أبنائك تسري في عروقك، إنّها فصل دافئ يعيش في داخلك.. إنّه فصل جديد يتداخل مع فصل الشتاء البارد، حيث ندف الثلج تسقط على تضاريس جسدك فتنصهر من حرارة كلّ الذين ضحوا من أجلك، وسالت دماؤهم أنهارًا عليها، فتعودين طفلة من غير تجاعيد ومن غير خدوش...

فكيف يا حبيبتي لعبدة المال، وأسياد ذهب الأرض بأن يشعروا بلواعج أمعاء أبنائك؟ كيف وهم يجلسون على موائد صُبِغت باللون الأحمر، وأمامهم شاشات يراقبون من خلالها أعراس الفقراء تُقام على جثث الأبناء، ثم يشربون من خمر العهر أقداحًا.. وعندما يملّون المشاهد التي باتتْ متكررة، يأمرون الخدم بإغلاق الشاشات، واستبدالها (بسي دي) يعرضُ حلقات زياراتهم لساحات تُقطَع فيها الرؤوس ببطء، فينتظرون حصصهم منها بشغف، وأصحاب الرؤوس مصطفين في طوابير يدعون الله بأن يُسرِعَ الوقت خطواته نحوهم، ليخلّصهم من ذلك الموت البطيء.. ففي ليلة اكتمال البدر لن يتحولوا إلى مصاصي دماء إلا إذا شربوا الدماء، من تلك الجماجم، فبعد سلخ جلدة الرأس يجعلونها أقداحًا لهم..

هذا ما تقوله تلك الأسطورة، ثم بعد أنْ يثملوا، يزنون... ويقامرون... ويبيعون... ويشترون... ويتاجرون بشعوب.. تحت شلالات الدم..... (تولد وتعيش وتموت).....

المشهد الثلاثون

جلستُ ذات نهاية نهار على تلك الصخرة بانتظار الرجل الحكمة متأملاً آخر خيوط للشمس، وقد تعثرتْ بغمامة أحضَرَتْها ريح الشتاء من مكان مولدها، لتأدية مهمة رسمية كُلّفتْ بها..

فشدّتني تلك المعركة التي اندلعتْ بين تلك الخيوط والغيمة، كلّ يريد تأدية عمله بنجاح.. لكن النتيجة في فصل الشتاء من الصعب التكهّن بها!! فقد تخسر الغمامة، وتكون بما تحمل من قطرات من نصيب بقعة أخرى، فتتحرك تاركة لتلك الخيوط حرية المرور والوصول إلى نهاية رحلتها على الأرض، أو أنّها قد تربحُ بعرقلة مسيرها ومنعها من الوصول، بقيتُ أراقبُ إلى أنْ انتهتْ المعركة بفوز خيوط الشمس، فاندفعتْ الغمامة إلى رقعة أخرى من سمائها، فأذهَلَني ذلك المشهد، وصفّقتُ بشدّة، وكأنّي فعلاً أشاهدُ مسرحية أحببتها، وشدّتني أحداثها..

جلستُ طويلاً أراقبُ حلول الغسق، من ثم رحيله، وقدوم الظلام بسكونه، وظلّتْ أنظاري موجهة نحو تلك الظلال للأشجار التي تسللتْ من غير حركة على الجبال البعيدة والتي وُلِدتْ مع ظهور القمر... فإذا بصديقي يجلسُ إلى جانبي، وقد بدا عليه هذه المرة الكِبر، فقد ابيضّتْ لحيته، وغارتْ عيناه..

ولما سألته عن سبب كلّ هذا الحزن والكمد الذي انتقع في وجهه، أجابني بأنَّ الوضع أصبح خطيرا جدا، فقد تدهور على رقعة واسعة من

الأوطان، وأن حلول كارثة مثل حدوث حرب دموية أمر وارد، وعزا هذا الوضع إلى تدهور الثقافة وانتشار الجهل..

ثم أردف:

ليتنا نقوم بالتنظيم لثورة مختلفة، ثورة تقودها الثقافة بدلاً من ثورات الدماء التي يقودها الجهل، فثورة الثقافة أقوى الثورات على مرّ التاريخ، نعم يا عاصي إنّها أقوى من تلك التي ارتُكِبت فيها مجازر وأُريقتْ فيها الدماء.. إنَّ ثورة قائدها الثقافة، هي الأقدرُ على الولوج في أي طريق، وهي قادرة على التغيير وإزاحة الطغاة عن كل المستغلين، فهي ثورة ليستْ كباقي الثورات.. فبعض الثورات تشبه ذبابة الفاكهة.. تولَدُ قبل الفجر وتموتُ بعده بساعتين.. أمّا تلك التي تقودها الثقافة فتستمرُّ ولا تنتهي إلا بتحقق إرادة أصحابها..

كان صديقي حزيناً جدًّا تلك الليلة ومحبطاً، وهو الذي كان يمدُّني دائما بالأمل والسعادة.. فحزمتُ أمري أن أجتهدَ في نشر الثقافة لأنّنا سنكون بحاجة إليها في الأيام المقبلة...

المشهد الحادي والثلاثون

إلى سلمى....

لا تأخذيني على محمل الجدّ عندما أكذبُ يا سلمى.. فجميع ارتباكاتي أمام حضورك، ولو كان على مسرح الخيال هي حقيقية.. فكيف ستكونُ ارتباكاتي عندما تحضرُ قسمات وجهك بالفعل أمام عينيَّ الواهنتين واللتين تسيران طريقًا طويلاً مليئًا بالأشواك والعثرات كلّ يوم باحثة عن شيء منك، ولو كان تفصيلاً صغيرًا.. أو ليستْ بعض التفاصيل حتى لو كانت صغيرة جدا حدّ عدم الرؤية تكون بذاك السحر وذاك الجمال!!

لا تأخذيني على محمل الجدّ يا حبيبتي إذا لم تشعري بارتباكي لدى رؤيتي إياك، فأنت لي لستِ فقط حبيبة، بل أمّ ووطن يحتضنُ حزني وألمي ويضمني إليه كطفل يشعر ببرودة غياب من يُحبّ..

لا تأخذيني على محمل الجدّ عندما لا أرتبك من ذلك العناق الطويل الذي يحدثُ عندما تلتقي عيناي ببحر عينيك الصافيتين، فأغوصُ بهما إلى حدّ الغرق، فمياهُك عميقة جدا وساحلُك أشدّ عمقًا منها.. فهل سمعتِ بساحلٍ أعمق من بحره؟.. إنّه ساحل عينيك الذي تغفو على رماله أجمل الأصداف التي تُخبئ أجمل لآلِيء في الكون.. لا تأخذيني على محمل الجدّ إنْ لم تلمحي الدماء تنزفُ من عينيّ.. فأنتِ المدينة المسورة بتلك الأسوار الشائكة القادرة على إدماء عينيّ كلّما ارتطم شعاعهما بها...

إليك يا سلمى أُهدي جميع انكساراتي..

في زواياي البعيدة أخبئ ذكرياتي التي تعودُ كشريط مؤلم كلّما نظرتُ إليكِ.. فأنتِ الأرض والسماء.. أنتِ الحب والشقاء.. من قال أنَّ المحبَّ سعيد؟ إنَّ المحبَّ هو أشقى الأشقياء.. فمن يحبُّ مدينة مثلك يتوه في الطرقات باحثاً عنك كلَّ يوم.. يحرثُ بعينيه ليلَك باحثاً عن شعاع حبّ يهتدي به إلى قلبك المغلق.. باحثاً في سماء عينيك، عن نجمة تُسافِرُ كلَّ فجر وتعودُ متعبةً مع المساء.. لكنّك مدينة لا تتعب وأنا مقيدٌ بكِ.. فقد اقتحمتِ كلّ أسواري وحطمتِ بأشعة عينيك كلّ دفاعاتي.. فلا تأخذيني على محمل الجدّ دائما.. فأنا أيضاً مدينة مثلك تنتظرُ زلزالك المدمّر لِتَمتزجَ بقاياي ولو ببعضِ بقاياكِ...

لن أبالغ عندما أقول بأنك كوكبٌ لم يُكتشفْ بعد.. وإنّي سأطلق مركبتي لأسبرَ أغوارك.. فليتكِ تكونين عطارد! وما أجمل أنْ أحترقَ على سطحك وأنصهرَ بك وأندمجَ مع كلّ ذرة من ذراتك.. وإياك أن تكوني نبتون، ذلك الكوكب البعيد، فإنّه بارد وأنا لا أُريدُ أنْ أتجمد فتكون نهايتي كتمثال صامتٍ عاجزٍ عن احتضانك أو حتى لَمسكِ.. وكم أتمنّى لو تكونين ذلك الكوكب الغازيّ الذي يُدْعى بالمشتري، لكنتُ تبخرتُ وراقصتُك يا حبيبتي رقصة واحدة تكونُ حدثًا تاريخيًّا لأول عاشقٍ يصمد على كوكب غير الأرض..

المشهد الثاني والثلاثون

أشعرُ بأنّني أصبحتُ كشهرزاد، أسردُ حكاياتي كلّ مساء على مسامع روح.. مع وجود اختلاف بين أهدافي وأهداف شهرزاد..

فشهرزاد كان هدفها تخليص رأسها من بطش سيف عبد شهريار، أما هدفي أنا فهو محاولة إيقاظ شعب كامل من سيف ذلك الظلم الأسود المسلّط نحو رقابهم مع كلّ زفير وشهيق له..

الخطر الذي يتربّصُ بشهرزاد طوال الليل، يزولُ عنها عند الفجر أمّا الخطر الذي يتربصُ بنا بعيون ثاقبة من حديد منذ أكثر من قرن فهو باقٍ...

(هيا يا عاصي أكمل تلك الحكاية..) قال روح..

ثم أردفَ.. (إنّني أشعر بأنَّ عمري يقفز سنوات للأمام بسبب تلك الحقائق المأساوية التي أطلعتني عليها..).

هل تعلم يا عاصي بأنّني قبضتُ على شعرة بيضاء تتجولُ كاللّص في ليل شَعريَ الدامسْ؟ وهذا يعني بأنّي كبرتُ أعواما كثيرة.. هيّا يا أخي وأكملْ باقي المآسي....

حاضر أيها العجوز صاحب الشعرة البيضاء اللّصة هههههه..

استمعْ.....

لقد بزغتْ خيوط الشمس يا شهريار وصاحَ الديك هههه..

ضحك روح على اللقب الجديد الذي منحتُه إيّاه.. وقال لي:

نعم لقد بَزَغتْ خيوط الشمس وصاح الديك يا شهرزاد، لقد نجوتِ هذه الليلة وسرقتِ يوما آخر من الحياة، هههههههه، ضحكنا ثم تعانقنا وودعته بقبلات كثيرة ولذيذة....

المشهد الثالث والثلاثون

جلستُ بالقربِ من نافذةِ غرفتي بعد قراءةٍ مكثفةٍ، وكنتُ قد نفّذتُ ما وعدتُ صديقي الحكمة بتنفيذه عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي، ولقاءات سرية كنّا نعقدها كلّ شهر نناقشُ بها نقاطًا مهمة كثيرة تخصُّ تلك الثورة التي اتفقنا على القيام بها، حيث قمتُ بشَحذ جذوة همم الشباب، علّنا نستطيع أن نرتقي بمجتمعاتنا وننتشلها من مستنقعات الجهل والتخلف، لأنه ما من مجتمع متخلف يتقدم، بل على العكس سيبقى مقموعًا متقوقعًا داخل قوقعته الصلبة...

نشرتُ ليلتها قصاصة صغيرة كانتْ على شكل سؤال استنكاريّ نالت آلاف الإعجابات والتعليقات كتبت فيها الآتي:

(لماذا يقومون بخصي أفكارنا؟ ألا يريدون لها بأن تتكاثر؟؟ فهل هذه هي الديمقراطية التي يتبجّحونَ بها ويدّعُونها في مدينتنا؟؟)

وبعد أنْ تفاعلتُ مع التعليقات التي وصلتني وتناقشتُ مع أصدقائي من المثقفين، نظرتُ عبر النافذة إلى البعيد حيث الأشجار التي سترَتْ عُريّها نُدفُ الثلجِ والتي كانتْ قد تسللتْ من تلك الغيوم السوداء، فلولا اسوداد الغيوم ما سَعِدنا بنزول ذلك الزائر الأبيض الذي نعشقُ.. تذكّرتُ فجأة أرض الوادي وبيتنا وحكايات أبي عن المعارك والأعداء، وعن غصّاتنا الكثيرة عندما يتسللُ ذكرُ زمن النكبة والنكسات الكثيرة التي مرّتْ بها الأوطان، وتذكرتُ عندما رجوتُ أبي بأن يُحضِر لي رقعة شطرنج

كنتُ قد رأيتها ذاتَ يوم في المدرسة على مكتب المدير، والتي كان يفتخرُ بها كثيرا، لأنَّ محافظ المدينة أهداها له عندما قام طلاب المدرسة بحملة تنظيف لشوارع المدينة وإزالة ما تجمّع بها من قمامة وأشلاء حيوانات متحلّلة، أو ربما لم تكن أشلاء لحيوانات بل كانت أشلاء أولئك الفقراء الذين ماتوا جوعًا بعد أن فشلوا بإيجاد كسر الخبز ليدفعوا بها الموت عن أنفسهم... المهم كان ردُّ أبي كالصاعقة مع أنّني لم أفهم كثيرا ما قاله، يومها جاء ردّه بهذه الكليمات المختصرة:

وما شأنك يا ولدي برقعة قُتِلَ أكثر جنودها؟ أما علِمتَ بأنَّ أكثرهم ذهبوا ضحية لتلك الحروب الوهمية؟ الرقعة يا ولدي التي لم يتبقَّ منها سوى تلك الحجارة التي نفَذَت من الموت، عندما اتخذَتْ عظام الجنود سلالم نجاةٍ لها هي رقعة لا حاجة لنا باقتنائها...

وتابع:

فالرقعة باتتْ دميمة لا يقتنيها إلاّ أولئك الذين يفتخرون بأنهم نجحوا بالنجاة، لأنهم شجعان، وأمّا الجنود فما هم إلا جبناء أغبياء لم يستطيعوا النجاة وردع الموت عن أنفسهم...

لم أفهم يومَها شيئًا مما قاله أبي بشأن رقعة الشطرنج، إلا أنّني منذ ذلك الوقت وأنا أكره تلك الرقعة... فكلّما رأيتُها بَكيتُ جنودها...

المشهد الرابع والثلاثون

قلمي ينزف إليك...

هل تظنين يا سلمى بأنك قوية؟ إنّها كذبة أنت اختلقتها وأقنعتِ نفسك بتصديقها.. فلماذا لا تحاولين تعرية نفسك أيتها الصغيرة المتوحشة؟ قفي أمام المرآة وتمعّني جيدا وحاولي الولوج إلى ما تحت جلدك.. تيقّني بأنكِ وقتها ستكتشفين بأنّك ضعيفة، وأنّ القوة التي تظهرُ على ملامحك وانفعالاتك وتدّعينها، ما هي إلا قناع سيسقطُ ذات يوم، تمامًا كمدينتنا المرهقة التي تبدو من الخارج قويّة لكنْ ما أن نسبرَ أغوار دواخلها، حتى نجدها مليئةً بالانكسارات.. أوليسَ قتل الأم لأبنائها انكسارًا؟ أو ليسَ دفنهم تحتَ رداء الظلام خفية عن العيون انكسارًا؟ أو ليسَ تجويعهم انكسارًا؟ وكم من انكسار وانكسار تعاني دواخلك أيّتها المدينة؟ وأنت يا سلمى أو لستِ مدينة كاملة بما تحملُ من ضعف وانكسار؟ هيا إذن أزيلي قناعك، وتصالحي مع نفسك ولو لمرة واحدة فإنك ضعيفة جدا...

هل تعلمين بأنّي قد رأيتُكِ ذاتَ مرة تنزوين ككوكب ينأى بعيدًا عن الشمس في عزلة تامّة، وقدْ كنتِ ترقدين في ظلام دامس وبرودة دائمة.. وهل تعلمين أيضًا بأنّني عندما رأيتُك هكذا تجمّدتْ مشاعري، وشعرتُ بأنّ الزمن توّقف كساعة أصابها الشللُ، فانفصلَ الزمانُ عن المكان، فغادرَ الأوّل، وترك الثاني، فبدوتِ لي كلوحةٍ إغريقية استَبْعَدتْ الزمن تماما من تفاصيلها.. وتارة أخرى كنتِ كغيمة خالية من أي طوق نجاة تتلوّين

داخل إعصار.. جلستُ أراقبكِ وأنتِ تتألمين ولا تستطيعين الانفلاتْ منه، ولم تتمكني من الهروب وإنقاذ نفسك إلا عندما مزّقكِ نُدفاً طاهرة، فجلستِ صامتةً على نوافذ العاشقين، وفقدتِ إحساسكِ بما حولك، وأخذتِ بتفريغ بواطن عقلك كأوراق خريف تغادر إلى المجهول، فبدوتِ هذه المرة كلوحةٍ سيريالية، فتجاوزتِ الواقع إلى حيث الخيال الذي كنتِ تتمنّينه واقعًا لكِ.. فأيُّ امرأة أنت يا سلمى؟؟؟؟؟؟ وأي وطن ومدينة؟؟

المشهد الخامس والثلاثون

ما أصعب تلك الليلة التي التقيتُ بها أخي، فقدْ كانتْ الليلة الأخيرة.. الأنفاس الأخيرة التي تشاركناها ذلك الوقت القصير..

جلسنا ليلتها كرجلين وقد كَبر روح ونما له شاربان خفيفان كالخطّ الرفيع، كان قد دخلَ تلك المرحلة التي تتأرجحُ بين الطفولة والشباب، حتى صوته ارتدى حلّةً جديدة أكثر خشونة من تلك الناعمة التي كانت تخرج من بين أسنانه كرذاذ المطر اللذيذ، بعكس ما يمطره فمه الآن من كلمات كأنّها قطرات ثقيلة تُحدِث حفراً واسعة عند سقوطها، وتَتركُ لها أثراً عميقًا في النفس.. فرحتُ، وبنفس الوقت انتابتني موجة حزن ألقتْ بكاهلها على صدري، فقد فرحتُ لأنّ روحًا كان قد كبُر فجأة ومن غير سابق ميعادٍ له مع العمر، فالعمر يتنقل كقطار سريع بين محطاته فيباغتُنا بعد الطفولة بشباب يُطلُّ من بعيد، لا يلبث أنْ يكون قريبًا جدّا منّا، ثم إلى كهولة.. فشيخوخة تبدأ أجراسها تدُقُ كلّ يوم إيذاناً بقدوم ملك الموت، ليستعيدَ أمانة أُعطيناها وقتَ كنّا أجنَّة في بطون أُمهاتنا، وحان الوقت لتعودَ لمنْ منحنا إيّاها... وانتابني الحزن لأنّي لم أتعرّف على أخي روح تلك الليلة، فقد تغيرتْ تصرفاته، وشعرتُ بقسوة في لهجته الجافة التي اختلطتْ بنظرة حنان حاولَ أنْ يُخفيها، فأبتْ إلا أنْ تفضحها عيناه.. لقد كان مضطرباً جداً.. تنهدّتُ بصوت عالٍ ولم أستطعْ إخفاء ملامحِ الحزنِ التي ارتسمتْ على وجهي، والتي أزالتْ تلك الرتوش القليلة من السعادة..

(هيا يا عاصي احكي لي باقي أحداث الحكاية، فقد أتعبَتْني كثيرا فحاولْ إنهاءَها...) قالها روح بلهجة تُغلِفُها دائرةٌ من القسوة التي لم أعتدْ عليها منه!!

شبكتُ أصابع يديَّ وكوّمتها أسفل ذقني، وقرّبتُ وجهي من وجهه وقلتُ له بأن هذه الحكاية أحداثها مفتوحة ولن تنتهي بسرعة لأنّ البشر عاشوا حكايات مماثلة لها منذ القدم وإلى الآن، وسيبقون يعيشونها ما دامت فيهم نوازع الخير والشر على السواء!! قلتها بلهجة حادة:

أتفهم يا أخي!!

تململَ روح وكأنما ملَّ من كلماتي التي قلتُ، وسكنَ حُزنٌ لم أعهدْه من قبلُ في قسمات وجهه، وقال بصوته الجديد: طيّب يا عاصي أخبرني ماذا حدثَ لأبناء الثور الأكبر؟؟

اختصرتُ عباراتي كثيرًا ولم أقلْ سوى النزر اليسير مما تبقّى من أحداث...

بدأتُ بسرد كلماتي التي انكسرتْ أمام تململ روح وتراجَعَ أكثرُها للخلف...

اسمع الآن يا أخي وإيّاك أنْ تنسى ما قد حدث..... وتابعت سرد حكايتي إلى أن سكت عن الكلام، فقال روح:

(هل انتهت الحكاية يا عاصي؟؟؟)

أجبته وأنا أمسك بنفسي عن الانقضاض عليه وإيقاظه من تلك الغيبوبة الغريبة التي بدا لي بأنّه دخلها مؤخرًا... لا يا روح هي لم ولن تنتهي، فحكايات الأوطان باقية تؤرّخ قلوبنا حقائقها مهما حاولوا طمسها وتغييرها..

سكنَ روح قليلاً وسافرتْ نظرة من عينيه لا أعلمُ إلى أين، لكنّها نظرة أظن بأنها قطعتْ مسافات طويلة جدًا إلى حيث المجهول، إلى هناك، ولا أعلم أين تكون هذا الـ"هناك".. أخافتني تلك النظرة وما حملتْ معها أثناء ذهابها وأثناء إيابها.. ذهبتْ بحقائب كثيرة محمّلة، وعادتْ فارغة وكأنها أفرغتْ حمولتها في مكان لا أعلمُ أين هو ولِمَ سافرتْ أصلاً إلى هناك؟؟ قطعتُ عليه عندما هززته من كلا كتفيه وصرختُ به:

أخبرني ما بك يا أخي؟ وماذا حصل لك؟

ثم انهارتْ أعصابي وسقطتُ على الأرض وأجهشتُ ببكاء مرير لم أبكِ مثلَه من قبل...

بدأتْ الدموع تتساقط كالقتلى من عينَيْ روح، لكنها من غير صوت فقد كانتْ صامتةً حدَّ الموت.. فهل تحمل الدموع ملامح الموت عند نزولها؟

(انتبه لنفسك يا أخي وانتبه لسلمى...) قال روح.

(لماذا تقول هذا الكلام؟) صرختُ هذه المرة بصوت أعلى..

تكلّمْ يا روح، فأنا أشعرُ بأنّك لستَ أخي الذي يُحبني ويُفضي لي بجميع أسراره حتى لو أتاني زائراً في أحد أحلامي..

(تكلّم أرجوك يا روح...).

عدتُ للبكاء كطفل فقد أمّه، وهويتُ عند رجليه أريد تقبيلهما، فبلّلتْ دموعي قدميه العاريتين، فأخذَ برأسي، وضمّه إلى صدره وبكى، وقال بصوت متقطع:

أرجوك يا عاصي، لا تسألني أكثر، ولا تُثقل عليّ يا أخي، فقط اعمل بما طلبته منك!....

فتعانقنا وكانت من أكثر الليالي مرارة وبرودة، وشعرتُ حينها بأنني لا أعانق روحًا بل أعانقُ طيفه.. طيفه الذي يُغادِر أمامي إلى اللارجعة، بتُّ متأكداً بأنني لن ألتقي به بعد هذه اللحظة..

اقتلع قلبي معه وبقي ملتصقاً به.. فغادرتُ ودموع حارقة استطاعتْ أن تترك آثارها على وجهي..

لم أستطعْ الالتفات لرؤيته، وقد تأكدتُ بأنها المرّة الأخيرة، عندما قال لي:

(الله معك يا أخي...) الله معك يا أخي قالها وتنهد تنهيدة الراحلين المفارقين إلى حيث اللالقاء، حيث الوداع الأخير حيث الذهاب إلى ذلك الذي لا أعلم أين مكانه ولا زمانه..

ها هم أحبتي يُسلَبون مني الواحد تلو الآخر، وهم الأيام يُثقل كاهلي، ويُربِكني ويعلنُ عن مستقبل مجهول في مكان لا أعلم أين ستكون وجهتي فيه؟؟

المشهد السادس والثلاثون

غابة الأحزان أصابها الزهايمر قبل أن تُنهي قرنها الأول، كيف قبِلتِ أيتها الغابة الحزينة بأن يستخدموك لتدمير أختك الكبرى؟

لِمَ لَمْ تحترمي أنها أكبرُ عمراً منك؟ ولِمَ لم تحترمي بأنّها حضارة كاملة؟ ألم تكن دائما تمد لك أيادي العون بما كان ينقصك من موارد، لتجعل منك حضارة مثلها؟ لِمَ لم تُزلزلي قواعدهم؟ لِمَ لم تكوني الدرع الحامي لها؟ كيف قبلتِ بأن يستخدموا سماءَك لتكون انطلاقةً لهجماتهم البربرية؟ ألا تموت الأخت قبل أن تسمح لنفسها بأن تمسّ أختها بأي أذى.. فاعذريني يا أمي لذلك العتاب غير المقصود، اعذريني لعقوقي إياك، لكنها الغيرة التي تسري في دماء العربي الأصيل..

اعذريني فقد قدموا أختك على طبق من...، لتكون أحد قرابينهم لأولئك الخبثاء.. فتبًّا لكم جميعًا...

تبًّا لكم يا من بقرتم بطنها ونبشتم أحشاءَها، عمَّ تبحثون؟ عن سلاح ادّعيتم وجوده لتكون حجة لكم للاستيلاء عليها! لعنكم الله.

سحبتم دماء جسدها حتى آخر قطرة، وزرعتم الفتنة بين أبنائها وجعلتم منهم طوائف ممزقة متناحرة الواحد منهم يقتلُ الآخر..

ألم تزرعوا بذرة الحقد بينهم ثم انتظرتموها إلى أنْ كبرت؟ وعندما تأكَّد لكم نجاحكم وبعد سنوات من العهر فيها، وبعد أنْ عثتم فسادًا فيها،

واعتديتم على شرفها، تركتموها ممزقة تئنّ، تحاول تضميد جراحها ولا تستطيع..

فلعنة الله عليكم.....

المشهد السابع والثلاثون

تكبيرات العيد تصدح في المساجد، وثوب مدينة الأحزان مرقّع... هطلت يوم العيد أمطار الطهارة.. فخلعتْ المدينة ثوبها المرقّع، وألقتْ بنفسها في أحضان المطر، كعاشقة ألقتْ بنفسها في أحضان حبيبها تبتغي الأمان.. غسلَ المطر الطاهر ما علِق بجسدها من نجس، فبدا وكأن الشباب والجمال يعودان لها مع كلّ قطرة تلامس جسدها، وها هي تسرع لترتدي ثوبها الأبيض الشفاف والذي أظهر جمال ما تحته، ثم انتعلت حذاء السندريلا، وبالمقابل كان المطر يرتدي زيّ الأمير واستعدّ الاثنان لرقصة فلامنكو رائعة..

بدأت مراسم الرقصة حين تقدم العاشقان نحو حلبة الرقص بكل عنفوان، فأصدر الاثنان طقطقة بأقدامهم تطربُ لها الآذان.. وبدت الراقصة كفرس جامحة تحتاج إلى ترويض.. وهل أفضل من سحر المطر مروض لها؟؟ فقد ذهبَ بلباب عقلها إلى حيث السعادة، فأنساها تلك الخيبات والانكسارات التي مرّتْ بها.. انتهت الرقصة التي كانت كالحلم الجميل بظهور ذلك القوس المطري الزاهي، والذي حمل الألوان السبعة بجمالها، وطغيانها، وقوتها، وتمردها، فكأنما حمل معه إشارات الخير والفرج القريب...

المشهد الثامن والثلاثون

بقي منظر أخي الصغير عالقًا في ذهني.. تصرفاته.. حزنه.. قلقه.. تلك الكليمات القليلة والأخيرة التي أرَّقت نومي.. فما الرسالة التي أراد روح إيصالها لي؟؟ أكادُ أجزم بأنك يا أخي تحمل همّا كبيرًا، لم تستطعْ إخباري به.. فهناك عاصفة مدمرة تقتربُ منّا ولا أستطيع التكهن بها..

غداً موعدي مع سلمى.. فخوفي عليها لا يقلُّ عن خوفي على روح.. سأرجوها بأنْ تَخرُج من الميتم سريعًا وسأتكفل بتأمين سكن لها.. المهم أن تخرج..

مضتْ دقائق تلك الليلة بطيئة كحامل في شهرها العشرين، فكم أثقلتْ صدري تلك الدقائق بسيرها البطيء، وكأنها تعمدتْ ذلك!

ما أثقل الوقت على المؤرّقين أمثالي! فكم خروفٍ ركضَ فوق رأسي وأنا أعدُّها بهدف استجلاب ذلك المسمى بالنوم.. ولكن بلا جدوى، فقد مللتُ الأرقام والخراف التي تزاحمتْ فوق رأسي وضاق ذرعاً بها دماغي، فقام بطردها خارج حدوده، ولا أدري كم مرَّ من الوقت حتى تسلّل النوم أخيرًا إلى أجفاني فأطْبَقها بلا مقاومة مني..

نَقرتْ العصافير باكراً جداً نافذة الغرفة طلباً للطعام الذي تعوّدتْ الحصول عليه منّي كلّ صباح..

قمتُ متثاقلاً بعد أنْ زادتْ النقرات على الزجاج، فأحضرتُ حبوب البرغل، وفتحتُ النافذة ونثرتُ لها كمية لم أعرف مقدارها من شدة التعب

والنعاس، لسعتني سياط البرد، فأغلقتُ النافذة بسرعة، وعدت إلى فراشي أطلب باقي حصتي من النوم، فوجدتُ الدفء ينفلتُ منه لولا أنني حاصرتُه بجسدي البارد..

نمتُ ولشدة تعبي بنفس الدقيقة، وكان النوم كريمًا معي هذه المرّة وكأنّه أشفق علي.. ضبطتُ المنبّه المزعج على موعد ذهابي للعمل.

مرّ الوقت ذلك النهار بطيئا أيضا، زاد من بُطئه.. خوفي.. انتظاري.. برده القاسي.. رياحه الحزينة.. المهم أنّه انتهى.. وحان وقت المغادرة فتوجهتُ على عَجَل نحو الميتم ماشياً مرة، ومهرولاً مرات كثيرة.. كان المطر غزيرًا نهاية ذلك النهار، وكنتُ ألتجئ منه أحيانًا إلى مظلات بعض البيوت الصامدة أمام بأسه.. الرياح مرةً تدفعُني للأمام بشدة كأنها تحاول تقديم خدمة لي، ومرة تعاكسني برشقي بحبات المطر الغزيرة، فأسمعُ قهقهتها فتصدرُ مني ضحكة خافتة لأبادلها النشوة التي تعتريها..

البرق يشقّ السماء معلنًا دور الرعد بإصدار أزيزه فيهدرُ بقوة ويشتدُّ تساقط المطر..

الشوارع خلتْ من المارّة إلا مني وبعض القطط والكلاب التي تنبش القمامة، متأملة في إقامة حفلة عشاء على أيّ شيء فيها، حتى لو كان مجرد إعلان على ورق عن شيء يُشبه اللحم أو صورة له..

مدينة حزينة، كئيبة لكنها جميلة.. عمرها لم يتعدَّ القرن، تندب حظها التعس...

تبلّل معطفي وثَقُل على جسدي النحيل فخلعتُه طلبًا للتحرُّر من قيوده، قدماي غاصتا في المياه التي ارتفع منسوبها في الشوارع، وكادتْ المياه الجارفة تقتلعني كعشبة ضعيفة تتشبثُ بأرضها بجذور متعبة وواهنة..

سرتُ طويلاً حتى تشبّعتْ خلايا جسدي بمياه المطر، وشرِبتْ إلى أنْ ثَمِلتْ، ومع اقترابي من الميتم كانت شدة السقوط قد بدأتْ بالتضاؤل شيئًا فشيئًا إلى رذاذ لطيف، فما أنْ وصلتُ الميتم إلا وكان المطر قد توقف نهائيًّا، والتجأتْ القطرات المتبقية إلى غيماتها بعد يوم متعب، وبعد أن عقدتْ هدنة مع الأرض التي تشبعتْ بالماء وتحوّلتْ إلى وحل زَلِق في أكثر مساحاتها.. فكانت الهدنة من مصلحة الجميع بمن فيهم أنا، فقد زادَ وزني بسبب ملابسي التي سبَحتْ في بحر المطر، وقدماي اللتان غاصتا في وحل الطريق، فثقُل جسدي عليّ وتباطأت حركتي، لكنَّني في النهاية دخلتُ الميتم بطريقة قانونية، فقد وجدتُ صديقي الحارس والذي كانت قد توطّدتْ بيننا علاقة جيدة قبل خروجي من الميتم، فلم أضطرّ لتسلق الأسوار عن طريق شجرتي المسنّة.. توجهتُ إلى الحديقة الخلفية، حيث نلتقي كل مرّة أنا وسلمى، استقبلتني الحديقة وأحسنتْ استقبالي، بحتُ لها بأشواقي تارة وبهمومي تارة أخرى.. فأنصتَ الجميع لبوحي بكل احترام.. مقاعدها، أشجارها المسنّة والشابة معًا، أزهارها، أعشابها، أسوارها العالية، حتى صراصير الليل كانت قد اشتاقتْ لي، فاستمع الجميع لي وصفقوا بكل حماسة.. حاولتْ الأزهار نشر عبيرها لكنها عجَزتْ.. راقصتْ الرياح أغصان الأشجار بمقطوعة حزينة باكية، وغنّتْ صراصير الليل أنشودتها المعهودة لكنها كانت من غير كلمات..

تساءلتُ عن سبب هذا الكم الهائل من الحزن!!

وسلمى تأخرت كثيراً عن موعدنا، فما العمل؟؟

إنَّ الخوف يجتاح كياني.. وبعد انتظار طويل وخوف أرخى رداءَه على قلبي، وبعد أن تأكدتُ بأنَّ الميتم قد نام بمن فيه ودّعتُ أصدقائي بمن

فيهم الريح التي انتهتْ معزوفتها للتو، وأسرعتُ مستجيراً بصديقي الحارس، ليساعدني على الدخول إلى غرفة سلمى.. وبعد أن قطعتُ له وعداً بأنّني لن أتأخر في الداخل تسللتُ عبر الممر سائراً على أطراف أصابعي، كاتمًا أنفاسي، إلى أن وصلتُ إلى غرفة سلمى، والتي كانت لحسن الحظ أصغر غرفة في الميتم، ولا تتسع إلا لشخص واحد، فكانت من نصيبها..

طرفُ الباب كان مفتوحًا.. انقبض قلبي وشعرتُ بقشعريرة سَرَتْ في أجزاء جسدي.. دخلتُ الغرفة مذعورًا.. استطعتُ تمييزها من الداخل بفضل أضواء القمر التي تسللتْ خلسة إلى الغرفة عبر النافذة باحثةً عن سلمى، فلم أكنْ أنا الوحيد الذي يبحث..

لا رائحة لسلمى.. الجدران بدا عليها اليأس.. أبواب الخزانة مفتوحة على مصراعيها وتُصدر صكيكاً كأنّه أنينٌ وبكاء على ملابسَ احتضنتها أعوام وأدمنتْ رائحة عطرها ثم هجرتها..

رائحةُ الفقدِ تعبقُ بكل ذرة من ذرات الغرفة.. غطاء السرير رُتّب على عجل.. فنجان الشاي خالٍ من أنفاسها، ولا أثر لرحيق شفتيها عليه..

جلستُ على طرف سريرها، تحسّستُ وسادتها، أمسكتُ بها وضَمَمْتُها إلى صدري، بحثتُ عن رائحة شعرها فلم أجدها، يبدو بأنّها قد تاهتْ وضاعتْ منّي هذه المرّة..

يا إلهي أين سلمى؟ وما الذي كان روح يعرفه ولم يُطلعني عليه؟

أطرقتُ برأسي إلى الأسفل، فإذا بورقةٍ مطوية بالكادِ ظهرَ طرفها وكأنّ من وضعها كان خائفًا أنْ يفتضح سرّ ما قد كُتِب فيها!! وُضِعَت أسفل المزهرية التي نالتْ شرف ملازمتها لسرير سلمى..

أسرعتْ أناملي إليها قبلي.. فتحتُها وأنا أرتجفُ فإذا بالكلمات تَنزِف حروفًا من يأس...

(عاصي.. أعلمُ بأنّك ستأتي هنا باحثاً عنّي.. أعتذرُ لعدم حضوري في الموعد المحدّد لنا.. أكتبُ هذه الحروف على عجل فقد تعثّرتُ كثيراً حتى استطعتُ أخيرًا كتابتها.. قَدِم اليوم إلى الميتم ذلك الشخص الذي اختطف منك روح قبل أعوام.. جاء وهدفُه إحدى الفتيات، فوقع الاختيار علي) سمعتُ تنهيدةً من خلال حروفها التي كانتْ ترتجفُ كعصفورٍ بلّله المطر، ولم ينبتْ ريشه بعد، ثم ساد صمت مخيف، وانسلّت الحروف من فوق الأسطر.. وكانت آخر كلمة استطاعتْ سرقتها من القلم (أحبّك...)...

(أحبّك) هذه الكلمة التي انتظرتُها أعواماً كثيرة.. انتظرتُ أنْ تنطِق بها شفتاها.. أنْ تسمعها أذناي.. كم تُقتُ لها.. كم تمنيتها منك يا سلمى.. كم من الليالي لم يزرني النوم وأنا أتخيّل حروفها الأربعة وهي تنزلقُ من فمك، وتهوي إلى قيعان قلبي فيغفو على صدى صوتها.. لِمَ قلتِها الآن وفي هذا الوقت تحديداً؟

لماذا تختطف حبيبتي الآن أيها المأفون؟ أما كفاك نصرٌ وروحٌ؟ لماذا تسطو على كل ما يخصُّني وتسرقه مني؟

أتعلم يا صاحب الكرش بأنّي تعلّمتُ جيدا كيف أتجولُ في متاهات قصرك كشبح تصعُب رؤيته؟

وقريبًا سنتغلبُ عليك فانتظِرنا قريبًا...

استدرتُ ودموعٌ تساقطت من عينيّ.. دموع امتزجتْ بمشاعر سعادة باعتراف انتظرته طويلاً.. وتعاسة بفقد سلمى وروح معا.. عُدتُ إلى غرفتي.. إلى وحدتي التي اكتملتْ الليلة بفقدِ حبيبتي.....

المشهد التاسع والثلاثون

تلك الليلة التي عدتُ بها من الميتم كانت ثقيلة جدا علي.. فهواء الغرفة أطبقَ على صدري، فغدوتُ كميّت دُفِن في الأرض من غير كفن، وأحاطه التراب ثم استيقظ، فإذا هو ليس بميّت بل لا زال يتنفسُ الحياة لكنها حياة قصيرة جدا، فالتراب يغمُره من جميع الجهات.. ولا يعلمُ أين المفرّ؟

كم عانيتُ تلك الليلة وأنا أُحاولُ استعادة أنفاسي التي كادتْ تنقطع بسبب الأكسجين، الذي عزّ عليّ في تلك اللحظات، فكلّما وجدتُ ذرة منه وحاولتُ إمساكها تنفلتُ منّي، فأشعر عندها بجدران الغرفة كأنها تتمايلُ وتتأهّب للسقوط عليّ...

انسحبتُ بسرعة خارج غرفتي، ولا أذكر هل أغلقتُ الباب أم أنني قد تركته مفتوحاً!

أسرعتُ هائماً في الشوارع علّني أستعيدُ أنفاسي التي فقدتُها في تلك الغرفة البائسة!!

تنفستُ بعمق إلى أن امتلأتْ رئتاي بهواء رطب بارد، أعادَ لي الحياة، ومن ساعتها أَخَذَتْني قدماي في عمق الليل ولا أعرفْ أين هي وجهتي، فالمهم هو أن أتخلص من ذلك الهمّ الجاثم على صدري بين تلك الجدران...

.... تجولتُ في أزقة المدينة التي تتسعُ حينًا وتضيقُ أحياناً كثيرة..

احتفظتُ بذاكرة من صور، لشوارعها، لبيوتها القديمة، لكلّ جزء فيها، شعرتُ بها وكأنّها تستعدّ لرحيل قريب..

بعض الذكريات لها حضور خاص يُجبركَ على الوقوف في حضرتها وتأدية التحية لها بكلّ إجلال واحترام..

تلك الليلة كانتْ صامتة، كلّ شيء فيها صامت، حتى هواؤها كان صامتاً إلا من حركة أمعاء بعض المتشردين، يفترشون قطع الكرتون، ويلتحفون البردَ على المقاعد التي انتشرتْ على جوانب الشوارع، يحاولون استدعاء النوم لكنهم دائما يفشلون.. إنّه عصر الفقراء وعصرهم أشبه بعصر فحمي، ويختلف عن عصر أصحاب الكروش، فكل عصورهم لازوردية، ينامون على الفرش الوثيرة ووسائد الريش تحتضن رؤوسهم...

باتت المدينة تلك الليلة مستسلمةً للموت كأنّها مقطوعة موسيقية لم تكتملْ بعد وتُرِكت على رفوف الزمن المهملة حتى غزاها الغبار وأغرقها في بحره العميق....

حاولتُ ليلتها أن أستَحضرَ أسماء أحبتي الذين ضمّهم التراب لكنّني عجزتُ فكأنّها قد تحللتْ في ذاكرتي، فهل تتحلل أسماء الموتى في الذاكرة كما تتحللُ الأجساد تحت التراب؟

انطلقتُ إلى المقبرة حيث يقبعون، في محاولةٍ لاسترجاع أسمائهم التي غادَرتْني.. وعندما وصلتُ كان المكان صامتا كصمت ساكنيه، إلا من صوت فأس حفار القبور يُجهزُ بيتًا جديدًا يستقبل به واحداً من أولئك الذين تتحلل أسماؤُهم قبل أجسادهم، سِرتُ بين القبور ولم أسمح لقدميّ بانتهاك حرمة القبور بالدوس عليها، إلى أن وصلتُ حيث قبور أحبتي، أمي.. أبي.. أخي.. بحثتُ عن شواهد القبور الثلاثة بُغَية أن أجدَ أسماءَهم التي كُتِبتْ عليها، ولكنّها كانت قد اضمَحلّتْ وتلاشتْ كما الأسماء التي كُتِبت عليها، فقد كانت شواهدها من طين، وسرعان ما ذابتْ مع أول

قطرات للمطر، سقطتْ عليها فانسحبتْ معها الأسماء لتغفو فوق أكفان أصحابها.. فهل أرادتْ هي هذا؟ هل أرادتْ للشاهد أن ينساها أم أنها تتخلى عن أصحابها لتلتحق بآخرين لا زالوا يتنفسون الحياة؟ هل تتخلى أحرف الأسماء عن أصحابها دفعة واحدة أم، أنّها تتسلل منسحبة حرفًا حرفًا؟ ومتى كان انسحابها؟ هل كان شريفًا في وضح النهار أم أنها كانت كاللص الذي يتسلل في عتمة الليل؟

خرجتُ من المقبرة تائها ولا أعلم طريقي، شعرتُ بأنّني أدورُ

في فراغ كبير يلتهمني.. فيَا ليته يُلقي بي بعيدا جدًّا خارج حدود مجرة الحياة لعلّي أفهم أين أنا، ومن أنا؟ فما أنا إلا تائهٌ، عاجزٌ في هذه الحياة، فلا عائلة ولا سلمى فلِمَ البقاء هنا؟ أوليس الخلاص أفضل لي؟...

لم أشعرْ تلك الليلة بالبرد الذي اجتاح جسدي بالرغم من أنني خرجتُ ولم أرتدِ معطفي الذي لا أعلم هو الآخر متى سيتخلى عني....

سرتُ حتى اهترأتْ أقدامي وكانت قد قادتني إلى الصخرة التي عادةً ما ألتقي بصديقي الحكمة عندها، وقد غاب عني هذه المرة كثيرًا..

جلستُ هناك حيث نظرتُ إلى البعيد بعينين مثقلتين، فباغتني القمر بخيوطه الفضية كأنَّما يريدُ مغازلتي ليخفّف شيئًا من حزني.. فزارتني أفكار غريبة لم يألفها عقلي، ولم تُفصِح عن نفسها ولا عن سبب زيارتها لي، ولم أستطع سؤالها لأنه ليس من عادات العربي أنْ يسأل ضيفه عن نفسه قبل مرور ثلاثة أيام، فكادتْ تغرقني بتدافعها الغزير لولا أنْ أنقذتني تلك الجلبة التي أحدثتها حركة أقدام صديقي الحكمة وهو مقبل نحوي...

فرّت ابتسامة من شفتيّ ولم أقاوم احتياجي لحضن صديقي، فأسرعتُ واحتضنته وأحاطني بذراعيه، فشعرتُ بالدماء تسري في جسدي الذي

كان متعطِّشاً جدًّا لهذا الكمّ من الحنان، فبلّلتْ دموعي معطفه فانمحت أسماء بعض الكتب، وصرختُ بصوت المتألم:

أين كنت؟ ولِمَ كل هذا الجفاء؟ لِمَ تركتني أعاني لوحدي؟ لقد افتقدتك كثيرًا، ولم يبقَ لي أحد، كلهم تركوني إلى حيث اللارجعة... ما بك يا عاصي وكأنَّ هموم الدنيا كلَّها تجثو على صدرك؟ هيا أخرج الألم الذي بداخلك علّني أخفف عنك قليلاً...

فصرخت بألم.. إنها سلمى يا صديقي، قد غادرتْ مع صاحب الكرش ولا أعلم إلى أين؟ وروح.. ثم سكت لساني لبرهة، ثم تمتمت بصوت متحشرج.. وروح.. إنّه في آخر زيارة لم يكن هو أخي الذي أعرف!! إنَّ روحي تؤلمني كثيرًا، فقد أصبحتُ وحيدا لا أخ ولا حبيبة ووطن ضائع.. ثم وقفتُ وبسطتُ يديّ وأرجعتُ جذعي للخلف، وصرخت صرخة أسمعتْ الكون فانخسف القمر وتوارى وماتت النجوم، وانحنت الأشجار وتساقطت صرعى وأعتمت السماء، واهتز كلّ شيء فتساقط القليل من ألمي وبقي الكثير، لأنّ بعض الألم من الصعب اقتلاعه، فقد يترسب ويتصلب ويصبح جزءًا منّا، وكأنَّه وُلِد معنا مذ خرجنا إلى الدنيا... انهارت أعصابي فتلقاني صديقي وأجلسني إلى جانبه وضمَّني إليه بكلتا يديه، وقال لي هيّا تكلم يا عاصي تكلم وأخرج ما ألمّ بك من قهر..

بكيت وبكيت وبكيت.. وبعد أن ارتاحتْ دواخلي قلت لصديقي: قد قرَضنا اليتم يا صديقي بمقراضه حتى مزّقنا، فما عُدنا نعي إلى أين ستنتهي بنا الحياة؟

فقال صديقي:

تبدو لمن يراك من بعيد إنسانًا بقلب قاسٍ، أمّا من يسبر أغوار روحك فهو الوحيد الذي سيكتشف قلبًا رقيقًا بأحاسيس هشة يسهل كسرها...

عِدْني بأن لا تبكي مرة أخرى يا عاصي، فأنا لا أريد أن أشفق عليك (فشفقة الآخرين تستنفد طاقات الروح، وتنهكها كما قال أفلاطون).

وأنا لا أريد لطاقات روحك بأن تُستَنفَد.. أتعلم لماذا؟ لأنك أمل أولئك الذين ينتظرونك هناك، حيث هيأتَهم وسلَّحتهم بالثقافة فتحررتْ عقولهم من الجهل، وأصبحتْ على استعداد كامل لتلك الثورة المنتظرة..

فلماذا اليأس؟ فكلّ شيء سيكون أفضل في القادم من الأيام،

فنحن لن نسمح لجذور الحزن بأنْ تمتدَّ في دواخلنا، لأنَّ امتدادها لأعماق كبيرة سيجعل من الصعب التخلص منها، بمجرد إزالة الجزء الذي يعتلي ترابها، إلا إذا انْتُزعت من الأعماق.. وانتزاعُها من الأعماق سيُخلف ألمًا يحتاج إلى مخدر جيد... فمن أين نأتي بهكذا مخدر؟؟ هههه هههه

فضحكنا.. وانزاح جزء آخر من الألم الذي كاد يقتلني..

المشهد الأربعون

إلى سلمى...

قلبي يا سلمى ناي مشوه بين يديك، فحاذري أن تلمسي ثقوبه الكثيرة التي ربما تخطّتْ المائة، فإنني أخافُ أن تَصدُر صرخة من أحدها فتتألمين، حاذري وامسكيه من الأطراف وحاولي أن تضعيه بين شفتيك الجميلتين وأطبقيهما عليه جيدا، ولا تخشي شيئًا وأنا كفيل بأنه سيهديك أجمل معزوفات الحبّ في زمن عزّ الحبُّ فيه على قلوب المحبين، احرصي أنْ لا تمسكيه إلا بعد هروب النهار وحلول الغسق أول الليل.. فالليل هو هدية العاشقين في هذا الكون، وأنا يا حبيبتي من الذين يكرهون صخب النهار وما يعتريه من اضطراب للكائنات، إنني أعشق سكون دقائق الكون ليلاً، فترفقي بقلبي وامسكيه جيدا، فإنّه سيعزف لك مقطوعات تفوق المقطوعات العالمية، فمقطوعات قلبي مزيج ما بين الحب والحزن.. الفقد والجنون، مزيج سحري عجز عن اكتشافه أمهر الموسيقيّين على مرّ العصور..

حاذري يا سلمى أن تهمليه بتركه على رفّ من رفوف قلبك المنسية، حاذري.. فغبار الإهمال هو أخطر أمراض العاشقين.. حاذري وحاولي أن تعالجي بعضًا من تشوهاته.. احفظيه في صندوق محبتك واهتمامك فهو ملكك وحدك، وينكسر بيد غيرك، فحاذري أن تكسريه.. فإنّني أكاد أسمع ارتطام مشاعري على أوتار حبّك، وها هو صداها يرجع ثانية إلي وقد ركلته لامبالاتك، ها هو يعود إليَّ صدىً مترعًا بالألم والانكسار..

إنّني يا سلمى بحاجة إلى هدنة طويلة لإعادة ترميم انكساراتي أمامك، قلبي الآن يعلن إضرابه عن تناول الحبّ في معتقله، والمدة ستكون مفتوحة، وأظن بأنهم سيكتبون عن هذا الحدث في صفحة الوفيات في جريدة لم يعد لها أي وجود الآن، وقد يرد خبرًا مهملاً في إحدى نشرات الأخبار المندثرة.

المشهد الحادي والأربعون

تسللتُ إلى القصر المشؤوم في الليلة التي تلتْ ذهابي للميتم، كشبح أسود بلون الليل وكان وقتها القمر محاقًا، دخلتُ غرفة روح فوجدتها خالية من أنفاسه، باردة كبرودة الحياة.. كبرودة الغياب..

ها قد وقع المحظور فالغرفة خالية من سريره وبقية أغراضه!! إلى أين السفر هذه المرة يا أخي؟ ألم نتعاهد بأن نبقى سويّة حتى يواري التراب أحدنا؟ فأين ذهبتْ تلك العهود؟ هل خُنتها يا روح؟ لكنني أعلم بأنك لست ممن يخونون عهودهم.. أنقذني يا إلهي.. فقد هَرِمتْ روحي كثيرًا وفقدتْ جميع مفاتيح الأمان إلا مفتاحك أنت..

جلستُ وأرجعتُ مؤخرة رأسي حتى لامستْ قسوة الجدار، قسوة الحياة، قسوة الأيام، حاولتُ البكاء لكني لم أستطع، فحتى الدموع هجرتني وهي التي كانت تريحني عندما أخلو إلى نفسي.. لم أبكِ يومًا أمام أحد قط، سوى تلك الليلة التي بكيتُ بها عندما رأيتُ صديقي الحكمة، وكانت الدنيا قد أطبقتْ بهمومها عليّ فلم أستطع منعَ دموعي من النزول فقد تمرَّدتْ عليّ لطول إقامتها الجبرية في المعتقل الذي كنتُ قد فرضتُه عليها لزمن طويل، وقد احتواني الرجل الحكمة تلك الليلة وفاض عليّ بحنانه فكان لي نعم الصديق..

وجهتُ سؤالاً لنفسي: أين تكون مرافئ السعادة يا نفس لترسو سفينتنا عليها؟

فأجابتْ: لا مرافئ لنا يا عاصي فلا تتعبني بالبحث عنها، فلا يوجد أمامنا سوى ليل مدلهم يحط بجناحيه على رقعة قلوبنا من غير قمر ولا نجوم!! فما أن أكملتْ نفسي المسكينة كلامها حتى نهرتُها لتسكت، وتتوقف عن ذلك الهذيان مع أنّني متأكد بأنه حقيقة وليس بهذيان لكن الإنسان بطبعه لا يميل إلى سماع الحقيقة عندما تكون مؤلمة..

أو ليست نفسي هي أنا؟ فلماذا أقسو عليها؟

لمعتْ سلمى كشعاع ضوء بين عينيّ، ودعتْني بأن أتبعها.. فوقفتُ مذهولاً ومرتبكًا، لكنني سعيد بنفس الوقت.. فوجدتُني أتبعُ ذلك الشعاع عبر الممرات الطويلة، دون أن آبه بأن يراني أحد، تبعتها وكان لا بدّ أنْ أكون سريعًا حتى لا أفقدها في تلك الممرات والدهاليز الملتوية..

نزلتُ الكثير من الدرجات الموحشة، والشعاع ما يزالُ أمامي يدعوني لأتبعه، وأنا أطاوعه وأسير خلفه لأنَّ سلمى تراءت لي من خلاله، ولم يكن أمامي حلٌّ غيره بعد اليأس الذي مزّقني، فإذا أنا بباب موصد في نهاية بهو ومفتاحه قد تُرِك فيه، فَتحتُه بحذر فإذا بالشعاع ينطفئ هناك، صرختُ، وناديت:

يا سلمى لا تتركيني هنا؟ في هذا المكان الموحش، فإذا بذاك المونيتور الكريه يقتاتُ على آخر أعضاء جسد سلمى، إنّه نفس المونيتور الذي توقعتُ وجوده يومًا في القصر، واعتبره الرجل الحكمة من الأفكار السوداوية التي تتردَّد عليّ كلّ فترة..

صرختُ، وضاقت أنفاسي، فالرطوبة كانت قاسية هناك، حاولتُ إنقاذ آخر شيء من سلمى، لكنَّني لم أستطع، انْتبَه ذلك المشوّه لوجودي، فسارعَ بالانقضاض عليّ، صرختُ وحاولتُ الفرار فإذا بالباب موصد ولا مفتاح

هناك، هربتُ إلى زوايا تلك الغرفة الكريهة لكنه ما زال يلاحقني، فشهقتُ شهقة محاولاً الحصول على الهواء وكدت أختنق، لولا الريح التي ثارت فجأة وأحدثت اهتزازات في نافذة الغرفة، وكأنما أرادت الحفاظ عليّ من الموت مختنقًا بسبب نقص الأكسجين، ففتحتُ عينيّ فإذا بي ما زلتُ في غرفة روح، ومن الواضح أنّني دخلت تلك الغيبوبة التي حذّرني منها الطبيب ذات مرّة، فهل هي بواطن عقلي هي التي أدخلتني فيها هروبًا من الواقع إلى عالم الأحلام بهدف أنْ أعثر على حبيبتي!! لكنني لم أعثر إلا على بقايا لها، فماذا عساي أفعل؟.. فحدثتني نفسي المسكينة والتي أنا دائم الإهمال لها، وقالت: لعلها إشارة لنا يا أنا فإذا رأيتَ أنك قد حفظتَ الطريق التي شاهدتَها في غفوتك! فهلمّ بنا لنتعاون على إيجاد سلمى.. وفعلاً أصغيتُ لنفسي هذه المرة، وأبديتُ لها اهتماما لِما اقترحتْ عليّ.. وقمتُ على عجل وسرتُ في القصر الذي كان صامتًا وساكنًا كأنه ميت....

اتّبعتُ الخريطة التي حفظتُ جميع ملامحها أثناء تلك الغيبوبة المريعة إلى أنْ وصلتُ بالفعل إلى ذلك البهو فوجدتُ الباب نفسه، والمفتاح لا زال يستقرّ في الباب تماماً كما رأيته في غيبوبتي القصيرة كأنما كان ينتظرني..

ما الذي يحصل لي هل كنتُ في غيبوبة بالفعل؟ أم أن ما حصل كان حقيقة؟

مددتُ يدي المرتجفة إلى المفتاح خوفاً من أنْ أفتحه فلا أجد غير ذلك المونيتور ينتظرني وبيديه آخر بقايا لسلمى، دقّ قلبي وانتفضَ بجناحيه كإوزة انتفضتْ بجناحيها خوفًا من تمساح داهمها فجأة، لكنني تشجعت وقتلتُ الرهبة التي اعترتْ قلبي ثم فتحتُ الباب، فأصدر صريرًا قويًّا أسقط قلبي من مكانه فاستدرتُ خلفي بسرعة لأطمئِنَّ أنْ لا أحد خلفي

ويتبعني، فإذا بالبهو آمنٌ خالٍ من أيّ أحد إلا من فئران أقامتْ احتفالية على قطعة جبن متعفنة، ربما حصلتْ عليها من برميل قمامة قريب.. عُدت بجسدي إلى الأمام وولجتُ إلى الداخل، فإذا بسلمى تغفو على سرير صدئ، ورائحة الرطوبة تفوح من أركان الغرفة، وهناك في الركن البعيد منها تُرِك مصباح عجوز أضواؤُه المتعبة تتأرجحُ كبندول ما بين التقدّم للأمام فتضيءُ مساحة واسعة من الغرفة، وما بين التراجع للخلف فتتركُ أكثر الزوايا معتمة، فحتى هذا المصباح يُصارعُ على البقاء في هذه الحياة..

تقدّمتُ نحو سلمى التي كانت مكبلة بسلاسل حديدية غليظة.. أيقظتُها.. فتحتْ عينيها الذابلتين الخائفتين وحاولتْ مدّ يديها النحيلتين لكنها لم تَقْوَ، فالقيود الثقيلة منَعتْها ثم قالت بصوت واهن: لِمَ جئت يا عاصي؟ لِمَ خاطرت بنفسك ودخلت هذا القصر الموحش؟

فانفطر قلبي عليها، ولا أنكر أنني بكيت تلك الليلة لأنني لم أستطع أن أمنع دموعي من النزول، وقد أعلنت تمردها عليّ، كيف لا أبكي وأُنزل أثمن العبرات؟ كيف لا وحبيبتي تُعامَل كالأسيرة التي ستباع قريبًا في سوق النخاسة..

قد أتيتُ يا سلمى، ها أنا بين يديك ومستعدّ لأن أضحي بنفسي مقابل أن تكوني بخير يا وطني.. أو لستِ وطني؟ أو ليست محبة الوطن فطرة تولد معنا بمجرد أن نشتم رائحة ترابه.. فكيف تطلبين مني أنْ لا أبحث عنكِ يا وطني؟

اقتربتُ منها قبلت وجنتها الشاحبة، ولم أسألها عن حالها فعن أيّ حال أسأل؟

بعد أن بكى كلانا وأنا أضمها إلى صدري، قلت لها:

أخبريني يا سلمى ماذا فعل بك ذلك الوحش؟ وكادت تخرج مني صرخة قهر كبركان عنيف يدمرُ كلّ شيء يمرُّ به، لولا أن سبقتني سلمى وقالت:

(اهدأ يا عاصي..)

وتابعتْ.. (إنّه يخطط لبيعي في المزاد العلني!!!!!)

ثم صمتتْ وأطرقتْ برأسها للأسفل.. ففهمتْ بأن هنالك مصيبة أخرى تخفيها..

(وماذا بعد يا سلمى؟؟).. سألتها

لقد أرسل روحًا إلى مملكة الثعابين لسبب لم أفهمه، لكنني سمعته يتكلم مع أحدهم عبر الهاتف ويقول له:

إنَّ الغلام أصبح جاهزًا للسفر، وسيصبح قريبًا بين أيديكم، إنّه كعجينة مرنة جاهزة للتشكيل، فشكّلوه كما تريدون، ثم قهقه بصوت عال وأنهى المكالمة.. ليلتها استطعت رؤية روح لوقت قليل جدا، واستطاع إخباري بأنّه لم يستطع إخبارك حفاظًا على سلامتك، ويعدُك بأنه سيبقى كما عهدته، فما من أحد يستطيع التأثير عليه، أو تغييره، كما ويطلب منك أن تسامحه على تلك الليلة..

ضربت رأسي بالجدار كالثور الهائج حتى سال الدم نافورة صبغتْ وجهي باللون الأحمر المختلط بمشاعر هائجة من الألم والقهر والكره لصاحب الكرش، وأخذتُ أنتحبُ كالمرأة الثكلى التي فقدتْ وليدها..

فخجلتُ من نفسي عندما داهمتني كلمات سلمى حينما قالت:

لا يا عاصي ما هكذا يكون الرجال وأنا لم أقل لك ذلك الكلام إلا لعلمي بأنك رجل لا يهزم، ولا يكسره شيء.. فلتبدأ يا عاصي معركة تحرير العقول التي أخبرتني بأنكم قاربتم على الانتهاء من خطواتها الأخيرة، واحرص أن لا تراق أي دماء، اجعلها معركة تتولى الثقافة قيادتها..

هدأتُ قليلا عندما رأيت تلك القوة التي تزيّنتْ بها سلمى، بالرغم من الأسر والذل والحالة التي كانت عليها.. لكنّه طبع الأوطان تبقى قوية ولو جار عليها الزمان وسلمى كانت وطنًا قويّا لا تهزها الرياح مهما كانت عاتية...

(ومتى وقت المزاد يا سلمى؟)... سألتها

(قد سمعتهم يقولون بأنه يحتاج لشهر كامل حتى يكتمل حضور جميع المشاركين فيه، من السادة والكبار من أصحاب المعالي وأصحاب القصور من داخل مدينتنا وخارجها..) قالت سلمى.

وتابعت بكلمات كلّها رجاء.. (والآن اذهب يا عاصي وأعدّ العدة لذاك اليوم، واعلم بأن مكان المزاد هو مسرح القصر، وفي وقت الفجر لأنهم يريدون أن يُتمّوا الصفقة والناس نيام، فأسرع قبل فوات الأوان..).

وقبل أن أودّعها لَمَحَتْ في عينيّ سؤالاً لم أتجرأ على طرحه عليها وهي بتلك الحالة...

فبادرتني بالإجابة.. (نعم إنّني أحبك ومنذ زمن.. هل تظن بأن هناك مدينة لا تحب أبناءَها؟)

فتجرأتُ في تلك اللحظة على طرح سؤال آخر عليها: (ولِمَ لم تريحي قلبي المرهق منذ البداية؟ لِمَ كلّ تلك اللامبالاة تجاهي؟).

فأجابت بصوت حزين: (إنّه خوف الأم على أبنائها يا عاصي، فالأم قد تتنكر لحبّ أبنائها إذا اضطرتْ بهدف حمايتهم.. لقد خفت عليك من لحظة كهذه، والقادم نجهله ونجهل ما سيكون به من أحداث...).

سادت لحظة صمت بيننا، ثم قلت لها: (إذن لا تخافي يا حبيبتي وأنا لن أتركك أبدًا..).

ودّعتُ سلمى.. ودعتُ قلبي تلك الليلة، وتسللتُ تاركًا وطني خلفي آملا بلقاء يجمعني به قريبًا..

المشهد الثاني والأربعون

رحم الغابة الحزينة مصاب بالسرطان فكل حملٍ لها يَسقُط مضغة قبل أن يصبحَ جنينًا، قال الأطباء بأنّه لم يعدْ لديها القدرة على الإنجاب! مع أنّها لا زالت صغيرة ويافعة فعمرها لم يتعدَّ القرن بعد...!!!!!!

لن تستقبلَ الغابة الحزينة مياهًا جديدة، فما عاد لها رحم، فقد أزالوه بعملية سرية في ليلة مظلمة وفي أقرب برميل للقمامة ألقوا به، تتناهش كرامته كلاب وقطط الشوارع، فيا ليت أرحام تلك الكلاب والقطط تتحول إلى بركان...

آه يا حبيبتي هيا، وجدفي بكل قوتك وقاومي أمواج الظلم العالية، حتى لو أصبحتْ كأمواج تسونامي المدمّرة، وثقي بأنّ كلّ ظلم سيصغر في النهاية.. جدّفي يا حبيبتي ولا تسمحي لبحر الظلم بابتلاعك فيتركك جثة هامدة في قاعه.. لا تسمحي لهم بوأدك فعصر الجاهلية انتهى، وعصر الظلم سينتهي قريبًا...

المشهد الثالث والأربعون

كلّ شيء ينسحبُ عند الفجر.. القمر.. النجوم.. الظلام.. إلا عينيك حبيبتي فهما مرابطتان هناك تتربصان عند الحدود..

وعند الغروب.. عند ذلك الساحل البعيد، تنتظران شيئًا لا تعلمان ما هو؟ لكنهما باقيتان ولا تنسحبان، وعند آخر حدّ للأفق تترقبان.. تترقبان شيئًا ليتني أعلم ما هو؟

أهدهدك لكي تنامي فترفضين، فمن ذاك الذي يسرق النوم من عينيك؟ هل عساه يستحق الانتظار؟

أغيب قليلاً ثم أعود، فأجد تينك العينين لا زالتا ترقبان شيئًا يأتي من بعيد.. أسألها حبيبتي: هل أنت على موعد مع أحد؟ فتتجمد عيناها ولا تبالي بما أقول!! فهل عساك تنتظرين حلمًا يأتي من بعيد؟ لا تنتظري حبيبتي فالأحلام جاءتْ في الليل وتعثرتْ في نجم ماتَ قبل قرن ودفنتْ نفسها معه..

أم أنّك تنتظرين رصاصة منهم؟؟ لا تخافي منها حبيبتي فإنني هنا ذلك الدرع الذي سيحميك دائما..

أو لعلك تنتظرين خيوط الشمس تنسجين منها جناحين، تغادرين بهما إلى البعيد!! كيف لك أن تفعلي ذلك أو ليست جذورك هنا عميقة؟ أو لستِ شريان كل شيء؟ لذلك القمر.. لتلك الشمس.. لهذا الكون.. فهل

تودّين قتل الجميع؟ هل تودّين قتلي أنا أيضا؟ قولي بربك يا سلمى قولي أو لستِ حياة؟

قولي لي لماذا ترتدين ذلك الثوب المثقوب يا حبيبتي؟ لماذا تصمتين؟ فهذا الصمت يقتلني... غدًا ستنبت خيوط الأمل في ذلك الثقب الحزين، وتنفجر براميل النفط، ونحن هنا لن نتركك تُباعين رقيقًا في سوق النخاسين بثمن بخس، بحفنة دولارات..

ألم يكتفوا ببيع أختك الصغرى بعد أنْ ألبسوها ثوبها الأبيض، وزغردوا في اليوم التالي لبقع العذرية التي انتشرت عليه؟ أتذكرين تلك الأيام التي تَتَبّع العار أثرها ولازمها، وسوف يلازمها إلى ما بعد القرن..

ألا تستحون يا أصحاب الكروش وأنتم تتاجرون بأعراضكم لأسياد النفط وصناع الدولار؟ تخططون لبيع حبيبتي ألا تستحون؟

لا تخافي يا سلمى، لا تخافي يا مدينتي.. يا وطني، كوني أيّاً ما تكونين فقد تعاهدنا على تحريرك فانتظرينا.....

المشهد الأخير

جاء اليوم الموعود....

سلمى اليوم عروس تعطّرتْ بالكافور بدل المسك.. أتعلمون ما هو الكافور؟ اسألوا غرف غسيل الموتى عنه فهي خير معلم!!!

رأيتُها من بعيد والأغلال قد أدمتْ قدميها بعد أن حفرتْ أخاديد فيهما..

أحضروها في كرنفال للعهر، من أجل عيون تترقبُ مجيئها على مسرح المزاد العلني.. كانت سلمى شبه عارية في ذلك الثوب الشفاف الذي أظهر مفاتن ما استقر تحته، وعيناها شاردتان متحجرتان تختزنان دموعًا تأبى النزول من شدة الكرامة..

ها هي تصل إلى المسرح والأغلال في قدميها، لها صرير اختلطَ بأصوات الموسيقى الصاخبة التي قام أحد مشاهير الموسيقى في الغرب بإعدادها مخصوصًا لتتلاءم مع هذه المناسبة.. مع هذه النكسة..

وفجأة توقف صاحب الكرش، أمام جمهور من النخاسين ولعاب الشهوة يجري سيولاً على طرفي أفواههم.. وسلمى... تقف أمامهم وقد انكشف جسدها القرمزي المغري لأولئك..

افتتح صاحب الكرش المزاد قائلاً:

صمتًا يا سادة.. أمامكم هذه الجميلة فمن يشتري؟؟

وقف أحدهم موجهاً سؤالاً إلى صاحب الكرش:

(لكنكم بعتم معظم أعضائها منذ زمن بعيد!!!!!!)

قهقه صاحب الكرش بصوت عالٍ زلزل القاعة:

(لكن ما تبقى يا سيدي هو الأشهى.. إنّه محلُّ الإغراء فمعظمه بكر لم تمسّه يد من قبل....).

فيصمت الجميع وسط غمز ولمز....

بعد برهة يبدو بأنّ ذلك المأفون قد اقتنع بما قاله صاحب الكرش. فرفع صوته:

(إني قد اشتريتها....).. وعند آخر حدّ لكلمة (اشتريتها) تهشم الشعور بداخلي، وأدمى كل جزء مني، وكاد يغمى علي من خوفي على سلمى وطني.. أتُباع الأوطان وتشترى؟ أتعرض للبيع كأي سلعة رخيصة؟ وتبعثرت حروف الكلمة قبل أن تتم عملية البيع وتعالت أصوات في خارج القاعة وازدادت الجلبة...

إنّه الحصان...!! إنّه ذلك الحصان الذي تمّ صنعه على غرار حصان طروادة، وأُدخِل داخل الأسوار بخطة أيضًا تشبه خطة الدخول إلى طروادة.

فُتِح باب صُمّم على أحد جوانب هيكل الحصان، والذي كان قد صُنع بحرفية عالية، فتدافع منه آلاف الأشخاص يرتدون معاطف تشبه معطف الرجل الحكمة، وكان هو على رأسهم.. قاموا بدخول قاعة المسرح بعد أن تقمّصتُ أنا دور أحد الحراس، وفتحتُ لهم الباب..

دخلوا برقي وتنظيم ليس له مثيل، رافعين شعارات مثل:

لا للبيع..

وأخرى فليُقفل المزاد بالشمع الأحمر..

وأخرى لا نتاجر بأعراضنا....

ولكن بعد أن دخلوا القاعة جميعًا، أُغلِق باب المسرح، وكانت المفاجأة بدخول أفواج كثيرة من المجندين يرتدون واقيات الغاز المسيل للدموع، وبدأوا بمحاصرتنا وإلقاء القنابل المسيلة للدموع بعد أن قاموا بإخلاء القاعة من أولئك التجار ومعهم سلمى، عبر ممرات سريّة جُهّزت لموقف كهذا... يا للعار ويا...!!

إنّها الخيانة يا سادة وليس غريبًا ما حصل، فما حصل اليوم حصل بالأمس وسيحصل أيضا في المستقبل، فمنذ قرون وكل شيء يباع وكلّ شيء يندثر إلا الخيانة، كأنها أصبحت من العوامل الوراثية في دماء البعض.. فما حدث اليوم يثبت لنا وجود خائن بيننا، أحد أولئك الذين حضروا اجتماعاتنا، وأكل من طعامنا وقاسمنا هواءنا، ما هو إلا جاسوس خائن وضيع، وكما يقول المثل (دود الخل منه وفيه) فالخيانة طالما أسقطت الأوطان، وها هي أخيرًا تُسِقط سلمى، فلولاها لاستطعنا ذلك اليوم تحريرها من أيدي تجار البشر.. والمصيبة الكبرى هي عندما تأتي الخيانة من أبناء جلدتنا، فيا للعار...

اختلط في ذلك اليوم المشؤوم الحابل بالنابل، وغبت عن الوعي بسبب الركلات والضربات التي تلقيتها...

استعدتُ وعيي فإذا بجسدي المتعب ملقى داخل مكان لا يتعدى طولي، وارتفاعه لا يتجاوز الذراع، أيقظتني تلك الفئران تلعب من حولي وصوتي الذي كان ينادي:

يا سلمى....

.....

أدركت عندها بأنّنا كنا نتصافح بلا أيد... ونقبل بلا شفاه... نسمع بلا أذنين.. وأخيرًا نودع بعضنا بلا اتجاهات، فكلانا يغمض عينيه المفقودتين ويسير بلا قدمين إلى حيث اللامكان ولا هواء ومع ذلك نستنشق أكسجين التوهان، ونبصقه ثاني أكسيد العار، في زمن بلا تاريخ، وننجرف في تيارات البحار المنسية، في كتب الجغرافيا المندثرة، ثم نلتقي من جديد في مقاهي التائهين بلا عيون، وعلى طاولات الغابرين لنرسم معًا مخططات على دفاتر بلا أوراق، ونكتب بأقلام مكسورة حكايات كلّ الفاشلين، وفي النهاية تربح حرب الدولار، وننكفئ على أعقاب سجائرنا الوهمية وننام قرونًا وقرونًا.....

وأنا هناك في زنزانتي ما زلت أنادي يا سلمى.....

والأستاذ المسكين، ما زال يتمشى بين الطلاب في الطابور الصباحي ببدلة جدّه العاشر، ويلكز ذلك الطالب اللّامبالي لينشد.... بلاد العرب أوطاني.....

تمت في...

2018 /9 /7

بديعة النعيمي